

الفضل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل وشاعرائه

ظل تسيّر الغزل حاداً في العصر ، وظل الشعراء ومن كان ينسطق به من الجوّاري ينظمونه ، مضيفين فيه كثيراً من الخواطر والمعاني ، ويخيّل إلى الإنسان كأن كل من شدّأ بالشعر نظم فيه ، مصوراً ألواناً من هذا الحب الذي كان يستأثر بالنفوس ويملك عليها من أمرها كل شيء . وكانوا ينظمونه في نفس الاتجاهين اللذين عرضنا لهما في العصر العباسي الأول ، ونقصدا اتجاه الغزل الصريح واتجاه الغزل العفيف ، وكان الاتجاه الأول هو الغالب على الشعراء ، بسبب كثرة الإماماء ودور النخاسين التي كانت تزخر بالجوّاري من كل جنس : روميّات وفارسيّات وغير فارسيّات وروميّات . ويصور الجاحظ في رسالته الخاصة بالقيان مدى ما كنّ يُشعّن في جوّ بغداد من التحلل الخلقي ، فكان طبيعياً أن تنشق سوق الغزل المادي ، وخاصة أن القيان والجوّاري كنّ يُكثرن من التغني به على إيقاعات الطبول والآلات الموسيقية ، فسعّرن قلوب الشعراء شباناً وكهولاً ، ولم يعودوا يستطيعون أن يردّوا أنفسهم إلى شيء من القصد ، فقد أخذ الحب الصريح يثور في نفوسهم وأخذوا يعبرون عنه تعبيراً صريحاً حراً ، بل حاراً له حرارة الحمى . وظل اتجاه الغزل العفيف النقي الطاهر حياً بجانب هذا الاتجاه ، وكانت تمتد أسراب كثيرة من غزل العذريين في العصر الأموي ومن غزل من ساروا في دروبهم من شعراء العصر العباسي الأول أمثال العباس بن الأحنف ، غزل له حمّاه ولكن بشوره لا تظهر على الجسد ، غزل قوى حار ، لا يعرف المتاع المادي ولا اقتطاف زهرات الحب وثماره ، إنما يعرف ناره المحرقة كما يعرف الحرمان والشقاء به ، مهما أمّل صاحبه ومهما استعطف ومهما تضرّع ، فليس

هناك إلا العذاب وإلا تجرّع الغصص واحتمال الأهوال والآلام ، ولا مشفق ولا رحيم .

وعلى هذا النحو ظل الغزل الصريح بجوار الغزل العفيف ، يَحْيِيّ معه هذه الحياة التي تضيف إليه خصباً فوق خصب ، إذ كان الغزلون الماديون يستمدون دائماً من مخازن الغزل العفيف كثيراً من المعاني التي تصور لوعات الحب وعذابه . ولن نستطيع أن نعرض طرائف النوعين . فقد مرت من ذلك لحظة ، إنما يكفي أن نذكر شيوعهما على ألسنة الناس جميعاً من خلفاء ووزراء وولاة وكتّاب ورجال ونساء ، مكتفين ببعض النماذج والأمثلة . وأكبر شاعر بين الخلفاء — وإن لم تبق خلافته سوى يوم وأيلة — هو ابن المعتز . ومرّ بنا حديث مفصّل عنه . وكان عمه المنتصر شاعراً . وله قطع مختلفة في الحب ، كان يطرحها على المغنين ويوقعونها على آلات الطرب . وفي مقدمتهم مغنية بستان . ومما غنّاه به قوله ^(١) :

رَأَيْتَكَ فِي الْمَنَامِ أَقْلٌ بُخْلًا وَأَطْوَعَ مِنْكَ فِي غَيْرِ الْمَنَامِ
وَلَوْ أَنَّ النِّعَاسَ يُبَاعُ بِنِعَاءٍ لَأَغْلَيْتُ النِّعَاسَ عَلَى الْأَنَامِ

وكان أشعر منه الخليفة الراضى ، وكان له ديوان شعر سقط من يد الزمن ، وروى له الصولى في كتابه : « أخبار الراضى بالله والمتقى بالله » طائفة كبيرة من أشعاره . وله قطعة تداولتها الكتب في ترجمته وهى فى وصف جارية مغنية كان يُفَتِّنُ بِهَا ، وتجرى على هذا النمط ^(٢) :

قَدْ أَفْصَحْتُ بِالْوَتَرِ الْأَعْجَمِ وَأَفْهَمْتُ مَنْ كَانَ لَمْ يَفْهَمْ
جَارِيَةٌ تَحِبُّ مِنْ لُطْفِهَا مَخَاطَبًا يَنْطِقُ لَا مِنْ قَمَرٍ
جَسَتْ مِنَ الْعُودِ مَجَارَى الْهَوَى جَسَّ الْأَطْبَاءُ مَجَارَى الدَّمِ

وكثير من الوزراء كانوا شعراء ، ومعروف أنهم كانوا يُخْتَارُونَ مِنْ صَفْوَةِ كِتَابِ الدَّوَاوِينِ . وكان كثير منهم يسيل الشعر على لسانه ، فيعبر به عن عواطفه

ومشاعره وأهوائه ، وطبيعي أن يوقد الحب في نفوسهم الجذوة التي طالما أوقدها في نفوس المحبين ، فإذا هم ينظمون قطعاً من الأبيات يسجلون بها بعض خواطرهم ، من مثل قول الفتح بن خاقان وزير المتوكل ^(١) :

أيها العاشقُ المعذبُ صَبْرًا فخطايا أخى الهوى مغفورة
زفرة في الهوى أحطُ للذنبِ من غزاةٍ وحِجَّةٍ مبرورة

وكان سليمان بن وهب وزير المهتدي يحسن الشعر ونظمه ، وله في الأغاني ترجمة طويلة ومثله القاسم حفيده وزير المعتضد كان يصوغ بعض خواطره شعراً ، وروى له المرزباني مقطوعات متعددة في الحب من مثل قوله ^(٢) :

كثيبٌ حزينٌ واكفُ الدَّمعِ هاملُهُ نخونُهُ من آجلِ البَيْنِ عاجِلُهُ
جريحٌ صدودٍ قد أضربَ به الهوى ورقٌ له عَوَّادُهُ وعَوَّاذِلُهُ

واشتهر بعض كبار رجال الدولة من الولاة ورؤساء الدواوين ممن كانوا يحسنون الشعر بحب عنيف كان يحتلّ أفئدتهم ويستأثر بكل ما فيهم من عواطف ومشاعر ، وفي مقدمتهم إبراهيم بن المدير وسعيد بن حميد وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد تولى إبراهيم - كما مرّ بنا - ولايات مختلفة منها ولاية البصرة ورأس بعض الدواوين التي كان يعمل بها منذ زمن المتوكل وكان يهوى عريب ولهما أخبار كثيرة ساقها أبو الفرج الأصبهاني في ترجمته لكل منهما ^(٣) . كما ساق كثيراً مما كان بينهما من المعاتبات والمحاورات ، ومن قوله فيها ^(٤) :

زعموا أني أحب عريباً صدقوا والله حُباً عجبياً
حلّ من قلبي هواها محلاً لم تدع فيه لخلي نصيباً
هي شمسُ والنساءِ نجومٌ فإذا لاحتْ أفلنَ غيوباً

وهو في هذه الأبيات يصرّح بأنه لا يشرك معها جارية في حبه وهيامه ، ولكن

(١) معجم الشعراء ص ١٩١ .

(٢) معجم الشعراء ص ٢٢٠ .

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ١٨ / ١٧٥ ،

١١٤ / ١٩ .

(٤) أغاني ١٩ / ١٢٤ .

يبدو أنه كان يشرك معها من حين إلى حين أخريات ، كن يأسرنه بجملهن وفتنتهن
وما يزرعن في القلوب من الهوى مثل جارية تسمى نبتا ، كانت من الجوارى القيان ،
وفيها يقول^(١) :

نَبْتُ إِذَا سَكْتَتْ كَانَ السَّكُوتُ لَهَا زَيْنًا وَإِنْ نَطَقَتْ فَالْدَرْ يُنْتَشِرُ
وَإِنَّمَا أَقْصَدْتُ قَلْبِي بِمَقْلَتِهَا مَا كَانَ سَهْمٌ وَلَا قَوْسٌ وَلَا وَتَرٌ

وكان سعيد بن حميد يعمل في الدواوين ، وأسندت إليه رئاسة ديوان الإنشاء
في عهد المستعين ، واشتهر بتبادل الحب مع فضل الشاعرة ، وسنعرض في ترجمتها
لما كان بينهما من محاورات شعرية طريفة ، وله فيها غزل كثير بديع من مثل قوله
يشكو السهاد وطول الليل^(٢) :

يَا لَيْلُ بَلْ يَا أَبَدُ أَنَائِمُ عَنْكَ غَدُ
يَا لَيْلُ لَوْ تَلَقَى الَّذِي أَلْقَى بِهَا أَوْ تَجِدُ
قَصْرٌ مِنْ طَوْلِكَ أَوْ ضَعْفٌ مِنْكَ الْجِلْدُ
أَشْكُو إِلَى ظَالِمَةٍ تَشْكُو الَّذِي لَا تَجِدُ
وَقَفْتُ عَلَيْهَا نَاطِرٌ وَقَفْتُ عَلَيْهِ السُّهُدُ

وعُرف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بأن قينة تسمى شاجي
شَغَفَتْ قلبه حبًّا ، فنظم فيها شعراً كثيراً ، وتزوجها وظل يهيم بها ويشملها
بحبه وعطفه وحنانه ويكلف بها كلفاً شديداً ، كما كان يكلف بها قبل زواجه وفي
شبابه ، وإلى ذلك يشير بقوله^(٣) :

زَرَعْتُ وَشَاجِي بَيْنَنَا فِي شَبِيبَتِي غِرَاسَ الْهَوَى فَاعْتَمَّ بِالثَّمَرِ الْعَذْبِ
وَمَاتَتْ قَبْلَهُ ، فَظَلَّ يَبْكِيهَا بِكَاءٍ مَرًّا ، جَازِعًا عَلَيْهَا جَزَعًا لَمْ يُرَ مِثْلَهُ ، وَظَلَّ
يُزُورُ قَبْرَهَا وَهُوَ يَنُوحُ عَلَيْهَا وَيَتَفَجَّعُ بِمِثْلِ قَوْلِهِ^(٤) :

(٣) كتاب الديارات ص ١١١ .

(٤) الأغاني (طبعة الساسي) ٨/ ٤٣ .

(١) أغاني ١١٧/ ١٩ وأقصدت : جرحت .

(٢) المختار من شعر بشار ص ١٨ .

يَمِيناً بَأْنَى لَوْ بُلِيْتُ بِفَقْدِهَا وَبَى نَبْضُ عِرْقٍ لِلْحَيَاةِ وَلِلنَّكْسِ
لَأَوْشَكْتُ قَتْلَ النَّفْسِ عِنْدَ فِرَاقِهَا وَلَكِنَّهَا مَاتَتْ وَقَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي

وكثير من الجوارى فى العصر كن ينظمن الشعر ويحسن نظمها ، وكُنَّ - كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع - يكتبن أبياتاً منه على طُرُوهن وعصائبهن وجوانب ثيابهن ، فيوقدن الحب فى قلوب الرجال ويشعلنه إشعالا . ونرى ابن المعتز يفرده لمجموعة منهن صحفياً فى كتابه طبقات الشعراء المحدثين ، ويذكر بينهن عريب وفضلا الشاعرة ، والخنساء جارية هشام المكفوف . ومن الجوارى اللاتى كن يحسن الشعر إحساناً بعيداً محبوبة جارية المتوكل ، وكانت قد أدّبت وثقفت ، وتمرن على قول الشعر حتى أحسسته . وكانت تلحّنه وتغنى به على العود . وكانت تحلُّ من قلب المتوكل محلاً رفيعاً ، ويروى أنه غاضبها ذات يوم ، ولم يلبث قلبه أن نازعه إليها ، فاقترب من حجرتها ، فإذا هى تضرب على عود وتغنى على ضرَبها مصوّرة لوعتها من خصامه ومغاضبته وأنها لا تطيق الصبر عن لقائه (١) :

أدور فى القصر لا أرى أحدا أشكو إليه ولا يكلمنى
حتى كأنى أتيت معصية ليس لها توبة تخلصنى
فمن شفيع لنا إلى ملك قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح عاد لنا عاد إلى هجره وقاطعنى

فصفتُ المتوكل طرباً ، ودخل إليها ، وتصالحا . ويروى أنه رأى ذات يوم جارية من جواريه كتبت على خدها بالمسك اسمه : « جعفرأ » . فأعجبه ذلك وتمنى لو صور ذلك شاعر من شعرائه : البحرى أو على بن الجهم أو مروان بن أبى الجنوب ، وبادرت محبوبة ممسكة بعودها ، وتغنّت (٢) :

وكاتبة فى الخدّ بالمسك جعفرأ بنفسى محطّ المسك من حيث أثرأ

(٢) مروج الذهب ٤٢/٤ .

(١) مروج الذهب ٤٣/٤ والأغانى (طبعة السامى) ١٩/١٣٤ .

لئن أودعت خطأ من المسك خدّها لقد أودعت قلبي من الوجد أسطراً
فيا من لملوك يظلّ ملكه مطيعاً له فيما أسرّ وأظهرها

وهي من أبيات قالتها على البديهة مما يدل على شاعرية جيدة . وكانت محبوبة وأضرابها يتطارحن مع الشعراء خواطرهن الرقيقة ، وليس من ريب في أنهن عملن على أن يعبر الشعراء في الحب عن حس دقيق وذوق مرهف . ونعرض بالتفصيل ثلاثة : شاعرين وشاعرة اشتهروا بكثرة ما نظموا من الغزل في العصر ، وهم خالد ابن يزيد الكاتب ، ومحمد بن داود ، وفضل .

خالد^(١) بن يزيد الكاتب

كان أحد كتّاب الجيش ، وأصله من خراسان ، وليس بين أيدينا عنه أخبار كثيرة ، وأول ما يلقانا من أخباره أنه كان على ديوان النفقات في الجيش الذي خرج بقيادة علي بن هشام أحد قواد المأمون للقضاء على فتنة بمدينة « قم » الفارسية وفي الطريق بلغ علياً أنه شاعر فأحضره وأنس به واتخذته في ندمائه . ولما وزر الفضل بن خالد للمعتصم قربه منه ، حتى إذا أخذ المعتصم في بناء سامراً بادر خالد ينظم مقطوعة يشيد فيها بالخليفة وبناء تلك المدينة العظيمة ، ونقلها الفضل إلى المعتصم فسرّ بها ، وأمر لخالد بخمسة آلاف درهم . وينظم فيه وفي المدينة أشعاراً أخرى ويغنيّ المغنون المعتصم بها ، وينثر على خالد جوائزه . وظل قريباً منه ومن وزيره محمد بن عبد الملك الزيات . ولا نقرأ له أشعاراً في مديح الخلفاء في العصر مع أنه عاصر منهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد ، إذ يقال إنه توفي سنة ٢٦٢ وقيل بل سنة ٢٦٩ . ويقول مترجموه إنه قصر نفسه على الغزل فكان لا ينظم إلا فيه ، ولا يعنّى بمديح ولا هجاء ، ومع ذلك نجد له بعض الهجاء القليل في بعض منافسيه من الشعراء ، غير أنه لم يبرز فيه فأنصرف عنه ، وقصر نفسه على الغزل ، ويقال إنه وسوس واختلط عقله

(١) انظر في ترجمة خالد وأشعاره الأغانى (طبعة

السامى) ٣١/٢١ وطبقات الشعراء لابن المعتز

ص ٤٠٥ وتاريخ بغداد ٨/٣٠٨ والديارات

(انظر الفهرس) ومعجم الأدباء ٤٧/١١

والنجوم الزاهرة ٣/٣٦ وله ديوان مخطوط

بالمكتبة العمومية بدمشق

في أواخر حياته . ويُجْمَع من ترجموا له على أنه لم يكن يتجاوز في الغزل أربعة أبيات ، وكأنه كان يرى الزيادة عنها فضلا ، ويقول ابن المعتز : شعره حسن جداً ، وليس لأحد من رقيق الغزل ماله ، وينشد من غزله قوله :

وَضَعَ الدَّمْعَ مواضعَ الحُزْنِ حَيَّ السَّهَادِ وَمَيَّتَ الجَفْنِ
عَبْرَاتِهِ نَطَقُ بِمَا ضَمِنَتْ أَحْشَاؤُهُ وَلِسَانُهُ يَكْنِي
فِي كُلِّ جَارِحَةٍ لَهُ مُثَلٌّ تَبْكِي عَلَى قَلْبٍ لَهُ رَهْنِ
لَمْ يَذَرِ إِلَّا حِينَ أَسْلَمَهُ قَدَرٌ لِلْحِظَةِ وَاحِدِ الحُسْنِ

والأبيات فيها دقة في التفكير وفيها خيال بعيد ، وتعبيره بميت الجفن تعبير غريب ، ومثله في الحسن تعبيره عن الجوارح بأن لها مقلا تبكي على قلبه الذي رهنته منه صاحبتة ، وأيضاً تعبيره عن صاحبتة بأنها واحدة الحسن ، وكأنه كان يحاول أن يأتي بأفكار مبتكرة ، من مثل قوله :

كَيْفَ خَانَتْ عَيْنُ الرَّقِيبِ الرَّقِيبَا أَخْطَأَنِي لَمَّا رَأَيْتُ الحَبِيبَا
رَحِمَتْنِي فَسَاعَدَتْنِي فَقَبَّلَتْ بَعْينِي مَعَ الحَبِيبِ الرَّقِيبَا

فهو لا يشكو من الرقيب على عادة الشعراء ، فالرقيب قد رحمه وساعده ، وقلب الشكوى المنتظرة شكراً ، وإذا كان الشعراء أُلْمُوا بالليل ووصف استطالته شاكين من ذلك متبرمين فإنه يعترف بأن ليل المحبين دائماً طويل لسهادهم المستمر ، يقول :

رَقِدْتَ وَلَمْ تَرْتِ لِلسَّاهِرِ وَلَيْلُ المَحَبِّ بِلَا آخِرِ
وَلَمْ تَذَرِ بَعْدَ ذَهَابِ الرَقَا دِ مَا صَنَعَ الدَّمْعُ بِالنَّاضِرِ

وهو ليس سهاداً فحسب ، بل هو سهاد ودموع وإحساس عميق بظلام لا ينتهي ، وصاحبتة بجانبه ولا تدري ما يعاني من عذاب الحب المبرح ، وهو يتجرع غصص حبه محتملاً مقاوماً ، والصباح كأنما ضل طريقه ، فعم الكون ليل لا آخر له ، ومن قوله :

قد استعار الحسنُ من وجههِ والغصنُ الناعمُ من قَدِّهِ
وقد تعاتبنا بأبصارنا فيما جناه الخلفُ من وعدهِ
حتى تجارحنا بتكرارنا للخطِ في قلبي وفي خدِّهِ
فأدرك الثَّارُ وأدركتهِ وسرَّني بالصدِّ عن صدِّهِ

فمنها يستعير الحسن جماله والغصن قَدَّه وقوامه ، وهما يتعاتبان عتاباً رقيقاً ،
ويكرران النظر ، وكأنما يؤلم طرفه خَدَّ صاحبه ويترك فيه أثراً من طول تكراره ،
أما طرفها فيؤلم قلبه بما يرسله من سهامه التي تجرحه في الصميم . وكأنما كل منهما
ظفر من صاحبه بئاره ، ولكن شتان ما بين الثَّارين : ثار يجرح الحدود وثار يجرح
القلوب . ويختم الأبيات بفكرة طريفة إذ يقول إنها صدَّت عن الصد وانصرفت
عن الهجر . وكان يلمّ أحياناً ببعض الأديرة أو يفضي إلى تعاطي بعض كنوس
الخمر ، أو لعله كان يذكر ذلك على سبيل الدعابة ، وكان يمزج هذا الحديث
بغزله على عادته ، فالغزل دائماً مبتغاه من شعره على نحو ما نرى في قوله :

رأتُ منه عيني منظرين كما رأتُ من البدر والشمس المضيئة بالأرضِ
عشيّة حيّاتي بوردي كأنّه خدودُ أضيفتُ بعضهن إلى بعضِ
وناولني كأساً كأنّ رُضابها دموعي لما صدَّ عن مقلتي غمضي
وولّى وفعلُ السُّكر في حركاتهِ من الراح ذعلُ الرِّيح بالغصن الغصّ

وتشبيه الورود المجتمعة بخدود المحبين ، وقد تلاصقت وسرى فيهم الحجل ،
نوّه به القدماء طويلاً ، وهذه الكأس التي ناولها صاحبه كأس المحبين التي طالما شربوا
منها لا الخمر وإنما الدموع ، دموعهم التي لا تعجف والتي ماتني تسقط فتمتلي
منها كنوسهم التي لا يعرف الناس أتمتلي شراباً أم ناراً . وله :

إذا كنت في كُلِّ بكلك مُفرغاً فأَيُّ مكانٍ من مكانك أَلطفُ
فمَنّي إذا ما غِبْتَ في كل مَفْصِلٍ من الشوق داعٍ كلما غِبْتَ يهتفُ
فهما روحان في جسد ، وهو يحس فراغاً لا حدَّ له إذا غابت عنه ، وكان كل

جزء فيه يفقد تمامه ، فهو ما يني يهتف بها حتى يستكمل وجوده ، فقد غاب نصفه
وهو يتبعه . ويتبعه قلبه من ورائه ؛ قلبه الممزق مثل مفاصله ، ومثل كبده الجريح ،
يقول :

كبدٌ شَفَّها غليلُ التَّصَابِي بين عَتَبٍ وَسَخْطَةٍ وَعَذَابٍ
كلُّ يومٍ تَدْمَى بجرحٍ من الشَّو ق ونوع مجدِّدٍ من عَذَابٍ
يا سَقِيمَ الجفونِ أَسْتَمْتِ جَسْمِي فاشْفِنِي كيف شئت ، لابلِك ما ي

فهو يَصَلِّي نيران العتاب والسخط ، وكل يوم يتجدد جرحه ويتجدد
عذابه ، وقد أعداه مريض الجفون ولكن لا في جفونه وإنما في جسمه بما أصابه به
من نحول وذبول وهزال وضئاً . ومن أرق الدعاء قوله في آخر الأبيات : « لا بك
ما ي . » وتدور له في كتب الأدب أبيات مفردة تروع بخفتها وطرافة فكرتها من
مثل قوله :

كيف تُرْجَى لَذَاذَةِ الإِغْمَاضِ لمريضٍ من العيونِ المراضِ
وقوله :

ليت ما أصبح من رَقَّة خَدَيْكَ بقلبك
وقوله :

وبكى العاذلُ من رَحْمَتِي فبكائي لُبُّكَ العاذلِ

ولعل في كل ما أسلفنا ما يدل أوضح الدلالة على صدق كلمة ابن المعتز عنه من أنه
يبلغ الغاية في رقة الغزل . وجعله ذلك مألفاً لكثير من معاصريه أمثال علي بن
المعتصم . وكان كثيرون يدعونه إلى مجالسهم ليسمعوا منه غزله ويطرحوه على المغنين
والمغنيات ، ليكتمل الأُنس والطرب ، ونحس دائماً أنه ظامئ إلى لقاء محبوبته ،
ويقال إنه فعلاً أحب جارية في مطالع حياته . ولم يستطع لقاءها وقد ظل ظامئاً إلى
هذا اللقاء حتى مماته .

محمد^(١) بن داود الظاهري

أبوه داود بن علي بن خلف الأصفهاني مؤسس المذهب الظاهري في الفقه ، أصله من الكوفة ودرس ببغداد ، واعتنق مذهب الإمام الشافعي ، ومضى يجتهد حتى استطاع أن يؤسس له في الفقه مذهباً مستقلاً عن المذاهب الأربعة : المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي . وقد أقامه على رفض القياس والرأى والتقليد للأئمة المذكورين واشتقَّ الأحكام الفقهية من ظاهر الكتاب والسنة . ولذلك سُمي مذهبه باسم المذهب الظاهري . وعُني بتربية ابنه محمد . وبدأ من ذلك بتحفيظه القرآن ، ويقال إنه حفظه وله سبع سنوات . ثم دفعه إلى التأديب على ثعلب الإمام اللغوي والنحوي المشهور ، وهو يروى في كتاب الزهرة كثيراً من الأشعار عنه . ولزم حلقة أبيه وتمثّل مذهبه ولما توفي سنة ٢٧٠ كان لا يجاوز السادسة عشرة من سنه ، فخلّفه على رياسة المذهب ، ومضى يحاور ويجادل فيه العلماء وخاصة ابن سريج إمام المذهب الشافعي في عصره . وكانت حلقة تدريسه تغصّ بالطلاب ، وله مصنفات مختلفة في المذهب الظاهري . ومن أهم مصنفاته كتاب الزهرة الذي عُني نيكل وإبراهيم طوقان بنشر جزئه الأول . والكتاب كله مائة باب جعلها في جزئين خصَّ الأول منهما بالحلب العذري العفيف ، وهو يتضمن خمسين باباً في كل باب مائة بيت من الشعر . وبالمثل أبواب الجزء الثاني الخمسون . فكل منها يشتمل على مائة بيت . وأهمها ما دار في تعظيم أمر الله عز وجل والتنبيه على نعمة وقدرته والتحذير من سطوته . ويهمننا في حديثنا عن الغزل الجزء الأول ، وهو في الأبواب الأولى منه يتحدث عن أسباب الهوى ، ثم يتأوها بأحواله من الفراق والشوق ويخصّ الأبواب الأخيرة بالحديث عن الوفاء ، وعادة يضع للباب عنواناً مسجوعاً مثل « مَن كَثُرَتْ لحظاته دامت حسرته » و « ليس بلييب مَن لم يصف ما به لطيب » و « التذلل للحبيب من شيم الأديب » . وهي عناوين غير مضبوطة ،

وطبقات الشافعية للسبكي في ترجمة ابن سريج ٢٣/٣ وما بعدها ، وطُبع له الجزء الأول من كتاب الزهرة ببيروت .

(١) انظر في حياة ابن داود وأشعاره تاريخ بغداد ٢٥٦/٥ ومروج الذهب للمسعودي ٢٠٥/٤ وابن خلكان والوافي بالوفيات للصفدي ٥٨/٣ ومرآة الجنان لليافعي ٢٢٨/٢

وبالمثل ما يليها من الأشعار ، ولاحظ هو نفسه ذلك فقال إنه اضطرَّ لأن يضيف إلى البيت المتصل بموضوع الأبيات أبياتاً أخرى حتى لا يكون مبتوراً . والأبيات أو قل الشواهد في الأبواب تمتد على طول الزمن من العصر الجاهلي حتى عصره . وقد بدأ بتأليف الكتاب في حياة أبيه وهو لا يزال حداثاً ، وفي ذلك يقول : « بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا في الكتّاب ونظر في أكثره » . وكان فطناً ذكياً نافذ البصيرة كما كان شاعراً . ويروى أن شخصاً سأله في حلقة عن حد السكر متى هو؟ ومتى يكون الإنسان سكران؟ فأجابه : إذا عزبت عنه الهموم ، وباح بسرّه المكتوم . وفي هذه الإجابة ما يدل على أنه كان ظريفاً . ويروى أيضاً أن رجلاً جاء إلى حلقة فدفع إليه ورقة ، فأخذها وتأمّلها طويلاً ، وظن تلامذته أنها مسألة فقهية ، وقلبها وكتب في ظهرها الإجابة ، فراجعوها . وخاصة حين عرفوا أن الرجل هو ابن الرومي الشاعر المشهور ، وإذا في الرقعة مكتوب :

يا بن داود يا فقيه العراق أفتنّا في قوئل الأحقادِ
هل عليهن في الجروح قصاصٌ أم مباحٌ لها دمُ العشاقِ
وإذا الجواب :

كيف يفتيكم قتيلاً صريعٌ بسهامِ الفراقِ والإشتياقِ
وقتيلاً التلاقِ أحسنُ حالا عند داودَ من قتيلِ الفراقِ

ويقال إنه كان يهوى فتى من أصبهان يقال له محمد بن جامع الصيدلاني العطار وكان طاهراً في هواه . فهو إن صح كان هوى نقيّاً . أو قل إنه كان تعلقاً أو شاك أن يكون هوى أو ظنه الناس هوى . وكان ترجماناً للهوى العذرى في عصره كما كان مؤلفاً فيه ، إذ صنّف في أشعاره الجزء الأول من كتابه الزهرة كما أسلفنا . وله فيه أشعار كثيرة يعزوها أو ينسبها إلى أهل عصره كما لاحظ ذلك المسعودي . من مثل قوله :

ع كبدى من خيفة البينِ لوعةٌ يكاد لها قايِ أسى يتصدّعُ
يخاف وقوعَ البينِ والشمْلُ جامعٌ فيبكي بعينِ دمعها متسرّعُ

فلو كان مسروراً بما هو واقعٌ كما هو محزونٌ بما يتوقع
لكان سواءَ برئته وسقامه ولكنَّ وشكَّ البين أدنى وأرجح

وهو يشكو من لوعات الحب التي تكاد تمزق قلبه حسرات . وهو يخاف
البين قبل وقوعه ، فيبكي بدموع غزار ، فما باله والبين يوشك أن يقع ؟ إنه يُمنع في
البكاء ويمنع في الالتئاع ويمنع في الألم والعذاب ، ومن قوله :

تمتّع من حبيبك بالوداعِ إلى وقت السرور بالاجتماعِ
فكم جرّبتُ من وصلٍ وهجرٍ ومن حال ارتفاعٍ وانّضاعِ
وكم كأسٍ أمرّ من المنايا شربتُ فلم يَضِقْ عنها ذراعى
ولم أرَ في الذى لاقيتُ شيئاً أمرّ من الفراق بلا وداعِ
تعالى الله كلّ مواصلاتٍ وإن طالتْ تؤول إلى انقطاعِ

وهو يدعو إلى ألا يشكو الحب من الفراق لحظة الوداع التي طالما عصرت قلوب المحبين ،
ويقول إنها ليست آخر لحظة يلتقي فيها الحبيب ، فستأتى بعدها لحظات لقاء ،
وهكذا الحب أحوال من وصل وفراق ولقاء وهجر . ويقول كم شرب من الحب
كثوساً مرة أمر من الموت ، فتحملها صابراً . وليس أمر من الفراق بلا وداع
ولا سلام ولا حتى تحية من بعيد ، فإن هذا عذاب لا يطاق ، عذاب كأنه الجحيم .
ويثوب الفقيه إلى رشده فالله قد كتب على كل شيء الزوال والفناء . ومن تنمة ذلك
عند الفقيه أن يرضى بالقدر المقدور وما كتبه القضاء المحتوم ، كأن يقول في بعض
غزله :

أفوض أسبابى إلى الله كلّها وأقنعُ بالمقدور فيها وأرتضى

فهو دائماً يسلم - في عذابه بالحب وآلامه فيه وما يصلى من هجر وبعد
وفراق - بما أرادته له المقادير . وتشيع في شعره كلمات فقهية كثيرة مثل كلمات الحلال
والحرام والتوبة ، ويعلن غير مرة أن حبه عفيف نقي طاهر لا تشوبه أدنى شائبة ،
يقول :

لَا تُلْزِمْنِي فِي رَغِي الْهَوَى سَرَفًا وَمَا أَوْفِيهِ إِلَّا دُونَ مَا يَجِبُ
فِي عِفَّةٍ نَتَحَامِي أَنْ يُلَمَّ بِهَا سُوءُ الظَّنُونِ وَأَنْ تَغْتَالَهَا الرَّيْبُ
وَيُكْثِرَ فِي غَزَلِهِ مِنْ ذِكْرِ الْمَنَازِلِ وَالْدِيَارِ وَالْفَيَافِي وَالْقِيَعَانِ وَالرُّكْبَانِ وَالْمَطَايَا ،
وَهُوَ يَتَسَاءَلُ وَالْمَنَازِلَ لَا تَجِيبُ ، فَقَدْ رَجَلَ الْأَحْبَةَ وَخَلَفُوا لَهُ وَجَدًا مَا مِثْلُهُ وَجَدَ ،
وَعَبَسًا يَخْفِيهِ فَكُلَ مَا حَوْلَهُ يَبْصُرُهُ ، يَقُولُ :

يُخْفِي هَوَاهُ وَمَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ حَتَّى عَلَى الْعَيْسِ وَالرُّكْبَانِ وَالْحَادِي
وَيَتَذَيِّعُ شَعْرَهُ فِي بَغْدَادٍ وَيَغْنَى فِيهِ الْمَغْنُونُ وَالْمَغْنِيَاتُ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي مِنْ أَمْرِهِ
شَيْئًا فَقَدْ كَانَ مِنْكِبًا دَائِمًا عَلَى حَلَقَاتِ الدَّرْسِ وَعَلَى التَّصْنِيفِ وَالتَّأْلِيفِ . وَيَسِيرُ
ذَاتَ يَوْمٍ الْقَاضِي مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ فَيَسْمَعُ جَارِيَةً تَغْنَى بِقَوْلِهِ :

أَشْكُو غَلِيلَ فَوَادٍ أَنْتَ مُتْلَفُهُ شَكْوَى عَلِيلٍ إِلَى إِلْفٍ يَعْْلَلُهُ
سَقَمِي تَزِيدَ عَلَى الْأَيَّامِ كَثْرَتُهُ وَأَنْتَ فِي عُظْمٍ مَا أَلْقَى تَقْلَلُهُ
اللَّهُ حَرَّمَ قَتْلِي فِي الْهَوَى سَلَفًا وَأَنْتَ يَا قَاتِلِي ظَلَمًا تَحْلَلُهُ
وَيَلْتَفَتُ إِلَى صَاحِبِهِ قَائِلًا : كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ارْتِجَاعِ مِثْلِ هَذَا الشَّعْرِ الَّذِي
تَلَوَّكَ أَفْوَاهُ الْمَغْنِينِ وَالْمَغْنِيَّاتِ ، فَيُوثِقُهُ مِنْ رَدِّهِ قَائِلًا ؛ هَيْبَاتُ سَارَتِ بِهِ الرُّكْبَانُ .
وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرْوَى لَهُ :

فَلَا تُطْفِئِ نَارَ الشُّوقِ بِالشُّوقِ طَالِبًا سُؤدًا فَإِنَّ الْجَمْرَ يُسْعَرُ بِالْجَمْرِ
وَلَمْ تَمْتَدِ حَيَاتُهُ طَوِيلًا . فَقَدْ تَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٧ وَهُوَ فِي الثَّانِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمَرِهِ ،
وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمَّا مَاتَ جَلَسَ ابْنُ سَرِيحٍ مُنَاطِرَهُ الْمَذْكُورَ آنَفًا فِي مَجْلِسِهِ وَبَكَى وَجَلَسَ عَلَى
الْتَرَابِ . وَقَالَ : مَا آسَى إِلَّا عَلَى لِسَانِ أَكَلِهِ التُّرَابَ مِنْ ابْنِ دَاوُدَ . وَحَزَنَ عَلَيْهِ
تَلَامِيذُهُ حَزْنًا شَدِيدًا . وَيُقَالُ إِنَّ نَفْطَوِيهَ جَزَعَ عَلَيْهِ جُزْعًا عَظِيمًا . وَلَمْ يَجْلِسْ فِي
حَلَقَتِهِ لِلنَّاسِ بِحَاضِرِهِمْ سَنَةً كَامِلَةً .

فضل^(١)

كانت أمها من مولدات اليمامة ، وكانت هي من مولدات البصرة ، نشأت في دار رجل من قبيلة عبد القيس أدبها وثقفها ثم باعها ، ووقعت لرجل من النخاسين في الكرخ ببغداد يقال له حسنويه ، فاشتراها منه محمد بن الفرج الرُّخَّجِي ، وأهداها إلى المتوكل سنة ٢٣٣ للهجرة . ولم يكن بين الجوارى في زمانها أفصح منها ولا أشعر ، ويقول فيها بعض النخاسين : كانت في نهاية الجمال والكمال . ولما دخلت على المتوكل سألها أشاعرة أنت ؟ فقالت : كذلك زعم من باعني واشتراني ، فضحك ، وقال لها : أنشدنا شيئاً من شعرك ، فأنشدته تملحه :

استقبل الملكُ إمامَ الهدى عامَ ثلاثٍ وثلاثينَا
إنا لنرجو يا إمامَ الهدى أن تملك الناس ثمانينَا
لا قدس الله امرؤاً لم يقلُ عند دعائي لك آمينَا

فاستحسن الأبيات ، وأمر لها بجائزة وأمر عريب أن تغنيه بها ، فغنت وطرب طرباً شديداً . وكانت حاضرة البديهة فكان الشعراء من حاشية المتوكل ومن غيرها يتعرضون لها ببعض أبيات يُلَقِّنونها عليها ، فتجيزها في سرعة شديدة ، وكان المتوكل نفسه يلقي عليها أحياناً بعض الأبيات فتُسرع في إجازتها ببديعتها الحاضرة ، من ذلك قول بعض الشعراء :

تعلمتُ أسبابَ الرضا خوفَ عتبها وعلمها حُبِّي لها كيف تغضبُ

ولم يكدها يلفظ بالبيت حتى قالت :

تصدُّ وأدنو بالمودة جاهدًا وتبعد عني بالوصال وأقربُ

المعز ص ٤٢٦ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٨ وزهر

الأدب للحصري ٤ / ١٦٥

(١) انظر في فضل وأخبارها وأشعارها

الأغاني (طبعة الساسي) ٢١ / ١١٤ ، ١٧٠ / ٢

وفوات الوفيات للكتبي وطبقات الشعراء لابن

وكما كان لها مديح كان لها هجاء خصصت به معاصرتها الخساء ، ولكن جمهور
أشعارها كان في الغزل ، وهو غزل رقيق رقة شديدة من مثل قولها :

عَلِمَ الجمال تركنني في الحب أشهرَ من عَلِمَ
ونصبتني يا مُنيتي غرضَ المظنة والتَّهم
فارقتنى بعد الدذ و فصرت عندي كالحلم
ما كان ضَرْكُ لو وصلا تَ فحفَّ عن قلبي الألم

وهي تقول لصاحبها إنك وصلتنى وشهرتنى بحبك ثم هجرتنى وأنزلتنى هذه
المنزلة الخزية من القطيعة ، حتى صرت وصارت أيام وصلك كأنها حلم وخيال ،
وهي تود لو ظفرت بحبه ثانية وظفرت بوصله ، فخرجت من آلامها المبرحة . وأكثر
غزلها في معشوقها سعيد بن حُصَيْنَيد رئيس ديوان الرسائل لعصر المستعين ، وله
فيها بدوره غزل كثير ، وبينهما محاورات ومكاتبات شعرية طريفة . من ذلك أنه
عتب عليها يوماً أنها لا تُقبِّل عليه في مجلسها ولا تذكره باسمه في غزلها ،
فكتبت إليه :

وعيشك لو صرَّحت باسمك في الهوى لأقصرَّت عن أشياء في الهزل والجِدِّ
ولكنني أبدي لهذا مودتي وذاك وأخلو فيك بالبت والوجد
فكتب إليها سعيد :

تنامين عن ليل وأسهره وحدي وأنهى جفوني أن تبثك ما عندي
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلته بنا فانظري ماذا على قاتل العمْد
وكان لا يقلُّ عنها كسفاً ولا غراماً ، وكانا كثيراً ما يتغاضبان ويتعاتبان ويمودان
إلى الرضا بعد أن يصف كل منهما هيامه بصاحبه ودموعه المتحدرة ، وكانت لانتى
الرقاع والرسائل بينهما ذاهبة راجعة ، وما كتبه له في إحدى الرقاع :

الصَّبْرُ ينقصُ والسَّقامُ يزيدُ والدارُ دانيةٌ وأنت بعيدُ
أشكوك أم أشكو إليك فإنه لا يستطيع سواهما المجهود

وكان حريئاً بصاحب الأغاني أو قل بمعاصريهما أن يحتفظوا للأجيال التالية بهذه الرسائل التي اتصلت بينهما ، ولكنهم لم يحتفظوا منها إلا بالقليل مع أنها تُعدُّ من طرائف الشعر العباسي . ويقال إنه بلغها أنه واصل جارية من جوارى القيان وملأت قلبه فتوناً ، فكتب إليه غاضبة ساخطة :

يا عالي السنَّ سيِّئَ الأدبِ شِبتَ وأنت الغلامُ في الأدبِ
ويحك إن القيانَ كالشُّركِ المنصوب بين الغرور والعطب
لا يتصدِّينَ للفقير ولا يتبعنَ إلا مواضع الذهب
فالجارية لا تحبه لشخصه وإنما تحبه لذهبه ودنانيره ، وكأنها تريد أن تقطع أوصال هذه العلاقة الناشئة ، حتى لا يعود إلى التفكير في تلك الجارية أبداً . ويقال إنها كانت في الغاية والنهاية من التشيع . فلما هويت سعيداً انتقلت إلى مذهبه من الانحراف عن آل الرسول عليه السلام . وكانت منذ مقتل المتوكل تمر بها أوقات حزينة تشعر فيها بالبؤس فكانت تنفّس عن نفسها بمثل قولها :

إن الزمان يَدْخُلُ كان يطلبنا ما كان أغفلنا عنه وأُسْهانا^(١)
مالى وللدهر قد أصبحتُ هِمَّتُهُ مالى وللدهر . ما للدهر ، لا كانا
والبيتان رائعان ، ويدلان كما تدل الأبيات السابقة على نبع شعري غزير ، واختُلف في زمن وفاتها ، فقبل سنة ٢٥٨ وقيل سنة ٢٦٠ ، ويقال إن سعيد بن حميد كان يقول بعد موتها : ما رسائل المدوِّنة عند الناس إلا من إنشائها تجلَّةٌ لها ولأدبها وملكتها الشعرية .

٢

شعراء اللهو والحجون

ظل كثيرون من الشعراء ينغمسون في اللهو والحجون كما انغمس أسلافهم في العصر الماضي ، وكان بعض هذا الانغماس يرجع إلى تحلل في الأخلاق ، وبعضه يرجع إلى الهروب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة ، وساعد على ذلك اختلال الموازين

فساد في القيم شاعا في حياة الدولة وفي حياة الناس . وكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتتسلط معه ألوان الإلحاد والزندقة ، وكان الكسرخ مليئاً بالخانات وبدور النخاسين ، والشعراء المجتآن يغدون ويروجون ليل نهار ، وبعض الجوارى لم يكن يعرفن حشمة ولا وقاراً إنما كن يعرفن اللهو والابتذال . وكانت هناك الديارات متناثرة حول بغداد وعلى طول الطرق إلى البصرة والكوفة جنوباً والموصل شمالاً ، وكانت مفتوحة الأبواب للشعراء دائماً لا في الأعياد المسيحية فحسب ، بل طوال العام ، فهم يلمتّون بها ويتناولون الخمر منها ، وقد يعكفون على الشرب فيها أياماً متصلة . وكل ذلك عمل على أن يكثر بين الشعراء أصحاب الخلاعة والمجون في أسوأ صورهما ، حتى لنجد كثيرين يتغزلون غزلاً شاذّاً بالغلمان ، وصمة ظلت في هذا العصر كما كانت في العصر الماضي ، وكثير من هذا الغزل كان يُنظم في أثناء السكر وشرب الخمر ، للضحك والفكاهة ، ولكن تبقى بقايا وراء ذلك تصور الفساد الخلقي في أبشع صوره . وحقاً لا نجد خليفة تورط في حب غلام ، ولكن أيضاً كان كثيرون منهم يعكفون على الملاحى والملاذات ، وكانت قصورهم تطفح بجماعات المجان في صورة ندماء ومضحكين ، وأكثرهم كانوا مُجَنّاناً محترفين . وفي كل مكان نلتقي بهذه الجماعات أو العصابات ، وكانوا يتعاشرون ويتراقون تارة في الديارات وتارة في دور النخاسين أو في الخانات أو في بيوتهم ، ومن أهمهم جماعة أو عصابة أبي هفان ومحمد بن الفضل ومحمد بن مكرم وأبى على البصير وأبى العيشاء ، وفيهم يقول المرزبانى : كانوا يتعاشرون وكانوا شياطين العسكر في الظرف والمجون^(١) ، ومنهم جماعة أبى السفاح الأنصارى وعبد الله بن رضا وإسماعيل بن يوسف ، وقد تعاهدوا ألا يقولوا شعراً إلا في صفة الخمر ، ويقول ابن المعتز إنهم ظلوا على ذلك إلى أن ماتوا^(٢) . وكان لشبوع مجالس الخمر حينئذ أثرها في ظهور كتابات كثيرة عن آداب المنادمة والنديم ، وما اشترطوه لها قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمساحة في الشرب والتغافل عن رد الجواب وإدمان الرضا واطّراح ما مضى وإسقاط التكليف وستر العيب وحفظ الغيب . ونعرض لبعض هؤلاء الشياطين وخمرياتهم فمنهم أبو العيناء الضرير ، وكان ظريفاً لسنّاً سريع الجواب ، واتخذ

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٨ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٣٩ .

المتوكل في ندمائه ، وكان ينزل مع رفاقه الأديرة ويستطيب خمرها المعتقة ، وقد بقي فيها أياماً لا يفيق من سكره ، ولد في دير باشهراً ، وكان بين سامراء وبغداد قوله ^(١) :

نزلنا دِيرَ باشَهراً على قَسِيرِهِ ظَهراً
وسَقَّانا وروَّانا من الصَّافِيَةِ العَنَدِنا
وطاب الوقتُ في الدَّيْرِ فرباطُنا به عَشْراً
ونِلنا كلَّ ما نَهِوا ه من لذاتنا جَهْراً

ومن كبار الشياطين في العصر مصعب الوراق . وكان من أشدَّ المجان تهتكاً وأكثرهم خلاعة وتطرحاً في الحانات والديارات ، وكثيراً ما كان يلم بدير الزعفران من ديارات الموصل ، وفيه يقول ^(٢) :

عمرتُ بقاعَ دَيْرِ الزَّعفرانِ بفتيانٍ غطارفةٍ هِجَانِ ^(٣)
بكل فتى يحنُّ إلى النَّصَابِي وَيَهْوَى شُرْبَ عاتقةِ الدَّنَانِ
بكل فتى يميل إلى المَلاهي وَأَصواتِ المِثَالِثِ والمِثَالِثِ ^(٤)
ظَلَّلنا نُعْمَل الكاساتِ فيه على روضِ كَنَقَشِ الخُسْرواني
وأَغْصانٍ تَمِيل بها ثمارٌ قَرِيباتٌ من الجاني دواني

ومن كانوا يتورطون حينئذ في الخمر وآثامها أبو عثمان الناجم راوية ابن الرومي ، إذ روى عنه أكثر شعره وكان يلزمه ولا يكاد يفارقه ، وله كثير من المعاني الدقيقة في الخمر وغير الخمر ، وكأنما كان يتأثر بأستاذه ، وفيها يقول ^(٥) :

مشمولةٌ كشعاعِ الشمسِ في قَدَحٍ مثل السَّرابِ يُرى من رِقَّةٍ شَبَحَا
إذا تعاطيتها لم تدر من لُطْفٍ راحاً بلا قَدَحٍ عاطتُك أم قَدَحاً
وكثيراً ما كان يلم بدير الخوات ، وهو دير كبير شمالي سامراء وسط البساتين والكروم ، وكانت تسكنه نساء مترهبات ، وكان من منازل القَصَصِ ومواطن اللُهو .

(٤) المِثَالِث والمِثَالِث : من أوتار العود .

(٥) المختار من شعر بشار ص ١٢٧ وانظر

الديارات ص ٩٣ .

(١) الديارات للشابشي ص ٨٠ .

(٢) الديارات ص ١٩٢ .

نطارفة هجان : سادة كرام .

وذكره كثيراً في أشعاره . ومثله دير العذارى وكان قريباً من بغداد ، وواضح من اسمه أنه كان ينزله جوار متبتلات عذارى ، ونزل به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد . فأقام به يومين واستطابه وشرب فيه ، وله مقطوعة يصور فيها ما امتد حول الديار من بساتين فاتنة وعكوفه على الشرب فيه بمثل قوله ^(١) :

ورباض كأنهن برود كل يوم لهن صبغ جديد
وكان الشقيق فيها عشيق وكان البهار صب عميد ^(٢)
وكان الثار والورق الخض ر ثياب من تحتهن نهود
فاسقنيها راحاً تريح من اله م وتبدي سرورنا وتعيد
وانتهز فرصة اللذات في دي ر العذارى فعلها لا تعود

وكان كثيرون لا يغفلون في المحون ولا يغرقون في اللذات ، وإنما يلمون بالخرم من حين إلى حين ، وقد يكون في حياتهم ما دفعهم إلى ذلك ، إما سخط شديد على الحياة السياسية ، وإما شك واستهانة بكل شيء ، وإما محنة نزلت بهم أو إحساس بضرب من ضروب الإخفاق . وبذلك نستطيع أن نعلل إقبال بعض المتكلمين على تناولها أحياناً أو قل بعبارة أدق على وصفها ، إذ ربما وصفوها بجسارة للشعراء في عصرهم ، على نحو ما نجد عند أبي العباس الناشي إذ يقول ^(٣) :

ومدامة يخفى النهار لنورها وتدل أكناف الدجى لضياها
صبت فأحرق نورها بزجاجها فكأنها جعلت إناء إنائها
وتكاد إن مزجت لرقه لونها تمتاز عند مزاجها من مائها
صفراء تضحى الشمس إن قيست بها في ضوءها كالليل في أضوائها
وإذا تصفحت الهواء رأيته كدير الأديمة عند حسن صفها
لا شيء أعجب من تولد برننها من سقمها ودوائها من دائها

زهر أصفر ، والكناية واضحة .

(١) الديارات ص ١٠٩ .

(٢) زهر الآداب ١٤٩/٢ .

(٣) الشقيق : ورد أحمر . والبهار :

وهي خميرية بديعة لعب فيها خيال الناشئ بفكرة ضوء الحمر ، فهي تارة تحيل الشمس ظلاماً ، وتارة تُرَى وكأنما لا يحملها إناؤها أو قل كأسها الزجاجي . وهي متناهية في الرقة حتى لتكاد تتميز من الماء حين يُسْرَجُ بها ، وهي أيضاً متناهية في الصفاء حتى ليرى الجو الصافي كدراً بالقياس إليها ، وهي داء ودواء وسقام وشفاء . ونقف عند ثلاثة اشتهروا باللهو والمجون في العصر . وهم الحسين بن الضحاك وأبو الشبل البرجمي وعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع .

الحسين^(١) بن الضحاك

من كبار الخلعاء الحبان ، وُلد بالبصرة ونشأ بها ، ثم تركها إلى بغداد لعصر الأمين ، وربما قبل عصره ، فقد عاش دهرًا طويلاً ، وكان ظريفًا ، فاتخذه الأمين نديمًا له ، ونادم من بعده المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر ابنه . وقد جزع جزعاً شديداً حين توفي الأمين ، ورثاه مرثى كثيرة ، وكان مما قال فيه باكية متفجعا .

هلا بقيتَ لسدِّ فافتنا فينا وكان لغيرك التَّلَفُ
قد كان فيك لمن مضى خلفُ فالיום أعوز بعدك الخلف

فلما جاء المأمون من خراسان إلى بغداد علم بموقفه منه ، وأنه طالما نظم أشعاراً ضد طاهر بن الحسين قائده في حرب الأمين كما نظم أشعاراً يبكي بها بغداد حين ضربها طاهر بالحجانيق ، وكان أشد ما أسخطه عليه البيتان السالفان ودعاؤه فيهما عليه بالتلف ، فلما ذُكر له في الشعراء قال : لا حاجة لي به ولا يرى وجهي إلا على قارعة الطريق أي في مواكبه العامة . وظل لا يتقرب القصر طوال خلافة المأمون ، بل لقد بارح بغداد إلى البصرة ، حتى إذا خلفه المعتصم استقدمه من موطنه وقربه منه . ففضى يمدحه وينال جوائزه ، وقد أقطعه كما أقطع رجال

١٥٦/٢ وشذرات الذهب ١٢٣/٢ وأشعار
الخليع الحسين بن الضحاك جمع وتحقيق
عبد الستار فراج (طبع دار الثقافة ببيروت) .

(١) انظر في ترجمة الحسين بن الضحاك
وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٨ وتاريخ بغداد
٥٤/٨ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٤٣/٧
وسمع الأدباء وابن خلكان ورواة الحنان

حاشيته داراً في سامراء ، واتخذته الواثق نديماً له ، وله فيه مدائح كثيرة ، وخلفه المتوكل فسلكه في ندمائه ، وكذلك صنع ابنه المنتصر ، وله فيه مدائح مختلفة مثل أبيه ، ومن قوله في تهنته له بالخلافة :

هَتَنَتَكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَلَاْفَةً جَمَعَتْ بِهَا أَهْوَاءَ أُمَةٍ أَحْمَدَ

وأعجب المنتصر بالقصيدة ، فقال له : إن في بقائك بهاءً للملك ، ولحق بعده عصر المستعين ، وفيه توفي سنة ٢٥١ للهجرة .

وكان يُعْرَفُ باسم الخليل لكثرة مجونه وعكوفه على الخمر ، حتى أصبح اسمه مقروناً باسم أبي نواس أكبر ماجن في العصر السابق ، وهو مثله فارسي الأصل ، وكان يصحباً في شبابه ، ويبدو أنه تمثل أشعاره تمثلاً نادراً وخاصة أشعار الخمر والمجون ، حتى اختلط الأمر على القدماء فنسبوا كثيراً من أشعاره إلى أبي نواس ، وزعم نفر منهم أن أبا نواس كان يحاكيه في بعض أشعاره ، والصحيح أن الحسين هو الذي كان يحاكي أستاذه وأستاذ الخمر والمجون في العربية عامة . ويقول ابن المعتز إنه كان أنقى من أبي نواس شعراً وأقل تخلیطاً منه ، وهي ملاحظة صحيحة غاية الصحة ، فإن أبا نواس كان يختلط بأبناء الشعب البغدادي من المجان وغيرهم في الحانات بالكرخ وغير الكرخ وفي الأديرة ، وكان لا يرتفع بلغته وألفاظه عنهم ، بل كان يدنو منهم دنواً شديداً . وكان ينظم كثيراً من خمرياته في أثناء سكره ، فبدا في أشعاره تخليط كما لاحظ ابن المعتز ، فهو تارة يرتفع حين ينظم في مجلس الأمين أو في مجلس بعض الوزراء والنائبين . وتارة يُسِفُّ حين ينظم في مجالس العامة ، وخاصة حين يخاطب غلمان الحانات وكانوا أخلاطاً من الفرس ممن لا يحسنون العربية الفصيحة . أما الحسين فكان في جمهور حياته يعيش في قصور الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يُعْنَى أشد العناية بلغته وألفاظه ، ولا يكتفي فيها بالفصاحة بل يطلب أيضاً الرصانة والجزالة حيناً ، وحيناً العذوبة والذعومة وما يلائم الأذواق الرفيعة في المجتمع ، لذلك قل التخليط عنده كما يلاحظ ابن المعتز ، بل كاد ينعدم انعداماً ، ولذلك أيضاً شاع في أشعاره النقاء والصفاء إذ كان يطلب فيها دائماً أن تلد الأسماع والأفئدة . وظاهرة ثانية يختلف فيها عن أستاذ المجون والخمر في عصره هي شيء من الحشمة المصطنعة في مجونه ، فهو لا يذيع فيه ما يذيعه

أبو نواس من الفحش ، لأنه كان يعيش في أوساط الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يحتشم وقلما يعلن أنه يقترف إثمًا منكراً ، أما أبو نواس فلم يكن يعرف شيئاً من الحشمة ولا كان يخفي شيئاً من آثامه . وليس معنى ذلك أن الحسين كان أقل من أبي نواس مجوناً وشغفياً بالخمر ، فقد كان مثله مفتوناً بها فتنة شديدة ، وكان يطلبها في الحانات وفي الأديرة وكان دائم الاختلاف إليها ، ومن طريف ما نظمه في دير سابور بقرب بغداد وخمره المعتقة قوله :

وعَوَاتِقِي بَاشَرْتُ بَيْنَ حَدَائِقِي فَفَضَضْتُهُنَّ وَقَدْ حَسُنَّ صِبَاحًا^(١)
 أَتَبِعْتُ وَخْزَةَ تِلْكَ وَخْزَةَ هَذِهِ حَتَّى شَرِبْتُ دِمَاعَهُنَّ جِرَاحًا
 أَبْرَزْتُهُنَّ مِنَ الْخُدُورِ حَوَاسِرًا وَتَرَكْتُ صَوْنَ حَرِيمَتِهِنَّ مُبَاحًا
 وهو بصور فنتته بزقاق الخمر المثلثة التي لم يمسسها أحد قبله ، وقد ضحكك الطبيعة في دير سابور من حوله ، وهو يفتح الزقاق ويشرب من دمانها أرتالا . وكان يختلف إلى ديارات العراق عامة ، وله في دير سرجيس بالقرب من الكوفة قصيدة بديعة ، يقول فيها :

أَخَوِيَّ حَتَّى عَلَى الصُّبُوحِ صَبَاحًا هُبَّا وَلَا تَعْدَا النَّدِيمَ رَوَاحًا
 مَهْمَا أَقَامَ عَلَى الصُّبُوحِ مُسَاعِدٌ وَعَلَى الْغُبُوقِ فَلَنْ أُرِيدَ بَرَاحًا^(٢)
 عُدَا لِعَادَتِنَا صَبِيحَةَ أَمْسِنَا فَالْعُودُ أَحْمَدُ مُغْتَدِيٍّ وَمَرَاحًا
 هَلْ تَعْذِرَانِ بَدِيرَ سَرْجِسَ صَاحِبًا بِالصُّعْخُو أَوْ تَرِيانِ ذَاكَ جُنَاحًا
 إِنِّي أَعِيدُكُمْ بِالْفَلَةِ بَيْنِنَا أَنْ تَشْرَبَا بِقُرَى الْفُرَاتِ قَرَاحًا^(٣)
 عَجَّتْ قَوَاقِرُنَا وَقَدَّسَ قَسْنَا هَزَجًا وَأَصْخَبْنَا الدَّجَاجَ صِبَاحًا^(٤)

وهو يتلطف إلى صاحبيه في آخر الليل ويدعوهما أن يتناولوا معه الصبح كما تناولاه بالأمس ، ويعتذراه ولا يريا في ذلك جُنَاحًا ولا إثمًا ، ويستحلفهما بما

(٣) الماء القراح : الماء الصافي .

(١) العواتق : زقاق الخمر .

(٤) القواقر : القداح . وقدس القس : رتل

(٢) الصبح : شرب الصباح ، والغبوق :

بعض التراتيل .

شرب المساء .

بينهما وبينه من ألفة ومودة وأخوة ألا يشربا ماء الفرات النмир ، بل يشربا معه
صبروحه المسكر المحبب إلى نفسه . وكان أبو عيسى بن الرشيد يدفع غلامه « يُسْرَا »
إلى معابثته فكان ينظم فيه بعض غزله ، وكذلك كان المتوكل يدفع غلامه « شفيعاً »
إلى العبث به ، وكان وضئ الوجه مثل يسر فكان ينظم فيه أيضاً بعض الغزل ،
وواضح أنه غزل كان يُرَاد به إلى الهزل وإضحاك المتوكل وأبي عيسى . وله في الغزل
عامية شعر كثير من مثل قوله :

وَصَفَ الْبَدْرُ حُسْنَ وَجْهِكَ حَتَّى خَلْتُ أَنَّى - وَمَا أَرَاكَ - أَرَاكَ
وَإِذَا مَا تَنْفَسُ النَّرْجِسُ الْعَذْوَ ضُرُّ تَوَهَّمْتَهُ نَسِيمَ شَذَاكَ
خُدْعُ لِلْمَنَى تَعَلَّلْنِي فِيكَ بِإِشْرَاقِ ذَا وَهَجَةٍ ذَاكَ
لَأَدُومَنَّ يَا حَبِيبِي عَلَى الْوَدِّ لِهَذَا وَذَاكَ إِذْ حَكَاكَ

والقطعة رائعة التصوير وتسيل عذوبة ، وهي عذوبة تشيع في كثير من أشعاره
الغزلية والحميرية ، وهي طبيعية اشاعر كان يعيش في قصور الخلفاء ومجالسهم ،
ويسمع في كل ليلة أوتار العيdan والطنابير والمعازف من كل لون ، مما جعل أذنه
الموسيقية تُرْهَفُ إرْهَافًا شديداً ، فإذا كثير من شعره يتحول ألحاناً وأنغاماً .
خالصة على شاكلة قوله :

عَالَمٌ بِحَبِيبِهِ مُطَرِّقٌ مِنَ التَّيِّبِ
يُوسُفُ الْجَمَالِ وَفَرَّ عَوْنُ فِي تَعْدِيهِ
وَهُوَ غَيْرُ مَكْتَرِثٍ لِلَّذِي أَلَا قِيَهُ
لَا وَحَقٌّ مَا أَنَا مِنْ عَطْفِهِ أَرْجِيهِ
مَا الْحَيَاةُ نَافِعَةٌ لِي عَلَى تَأْيِيهِ
النَّعِيمُ يَشْغَلُهُ وَالْجَمَالُ يُطْغِيهِ

والقطعة من وزن عباسي حديث هو وزن المقتضب ، وهي تطير عن الغم
بخفة . ولم يقف تأثير الغناء وآلات الطرب لعصره في شعره عند الملاءمة بين
المصر العباسي الثاني

جرس الكلمات ، بل تجاوز ذلك إلى الأوزان ، فكان يفرع إلى مجزواتها كثيراً
إرضاءً لآذان السامعين ، وحتى يتيح للمغنين والمغنيات في شعره القُرُصَ كى يجهرُوا
بألفاظه ويهمسوا بها حسب حاجاتهم الغنائية .

أبو الشبل^(١) البرجُمِيّ

اسمه عاصم بن وهب ، وُلد بالكوفة ونشأ وتادَّب بالبصرة ، يقول أبو الفرج :
« قدم إلى سامراء في أيام المتوكل ومدحه ، وكان طَبَباً نادراً ، كثير الغزل ، ماجناً
فنفق عند المتوكل بإيثارة العبت ، ونادمه وخصَّ به فأثرى » ثم يذكر بعض مديحه
للمتوكل وما أسبغ عليه من عطاياه . ويبدو من اصطفاء المتوكل له أنه كان ظريفاً
خفيف الروح ، ويقصَّ ابن المعتز بعض نوادره ، مما يدل على أنه كان فكاه
المحضر . وكان خليعاً مثل الحسين بن الضحاك يسرف على نفسه في المحجون
ويتهالك على اللذات ، ويطلبها في الحانات وفي الديارات ، ويقول من ترجموا له
إنه كان عاكفاً على الشراب لا يفارقه ، ولا يوجد إلا سكران قد أخذ منه السكر
مأخذاً شديداً ، ويقولون إنه كان يتطرح في الديارات والحانات ومواطن اللهو ،
لا يُغَبِّها ولا يتأخر عنها ، بل دائماً في حانة أو في دَيْر أو في بستان أو متنزه وقد
شرب وأغرق في الشرب حتى لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه ، بل لم يعد يستطيع
حراكاً . وكان كثير الاختلاف إلى دير أشموني بقرية قُطْرَبُل شمالي بغداد
وكانت القرية أشبه بحانة كبيرة يختلف إليها أصحاب البطالة والمحجون . وكان عيد
هذا الدير في اليوم الثالث من أكتوبر ، وكان يجتمع فيه كل من ببغداد من أهل
الطرب واللهو ، يخرجون إليه جماعات ، منهم من يركب السفن النهرية بدجلة ،
ومن يركب الخيل المطهمة ، وينزلون في أكناف القرية وحاناتها ودَيْرها الكبير ضاربين
خيامهم وفساطيطهم ، وكلُّ قد أعدَّ ما استطاع لقصِّفه ولهوه ، والقيان تعزف
عليهم ، وآلات الطرب تُسمِّع في كل مكان ، والناس يطربون ويشربون وقد
يرقصون طرباً واستحساناً لما يسمعون . وطبيعي أن يتأثر الماجن الكبير أبو الشبل

ومعجم الشعراء للمرزباني ص ١٢٣ والديارات
للشاذلي ص ٥٠ وما بعدها .

(١) انظر في أبي الشبل وأخباره وأشعاره
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٨٠ والأغاني
(طبع دار الكتب المصرية) ١٩٣/١٤

بمناظر هذا العيد ، وقد أخذ الشراب منه مأخذاً عظيماً فيتغنّى بمثل قوله :

شَهِدْتُ مُوَاطِنَ اللَّذَّاتِ طُرّاً وَجِئْتُ بِقَاعِهَا بَحْراً وَبَرّاً
فَلَمْ أَرْ مِثْلَ أَشْمُونِ مَحَلّاً أَلَدَّ لِحَاضِرِيهِ وَلَا أَسْراً
بِهِ جِيشَانِ مِنْ خَيْلٍ وَسُفْنٍ أَنَاخَا فِي ذُرَاهِ وَاسْتَدْرَا
كَأَنَّهُمَا زُحُوفٌ وَغَىٌّ وَلَكِنْ إِلَى اللَّذَّاتِ مَا كَرّاً وَفَرّاً
سَلَاحُهُمَا الْقَوَاقِزُ وَالْقَنَانِي وَأَكْوَاسُ تَدُورُ هَلَمْ جَرّاً^(١)
وَضَرْبُهُمَا الْمَثَالُثُ وَالْمَثَانِي إِذَا مَا الضَّرْبُ فِي الْحَرْبِ اسْتَحْرَا

وكان مثل الحسين وعامة مجّان عصره يُكثر من الغزل ، وكان يستهتر فيه أحياناً ويتهتك ويتمدح بالتهتك والاستهتار مسفهاً في شعره ، وكأنما كان ينظم مثل هذا اللون من الغزل للمجان من أمثاله مُشيعاً فيه غير قليل من الفحش . وكان ينظم بجانبه غزلاً آخر لا يسف فيه هذا الإسفاف ، بل يُبقي فيه على مروءته وكرامته إن كان للمجان من أضرابه فضل من كرامة ، على شاكلة قوله :

بَأَيِّ رَيْمٍ رَى قَدْ بِي بِأَلْحَاطِ مِرَاضٍ^(٢)
وَحَمَى عَيْنِي أَنْ تَذَ تَذَّ طَيْبَ الْإِغْمَاضِ
كَلِمَا رُمْتُ أَنْبَسَاطاً كَفَّ بَسْطِي بَانْقِبَاضِ
أَوْ تَعَالَى أَمَلِي فِيهِ رَمَاهُ بَانْخِفَاضِ
فَمَتَى يَنْتَصِفُ الْمَظْ لَوْمُ وَالظَّالِمُ قَاضِي

والأبيات خفيفة ، ولكنه لا يلحق الحسين بن الضحّاك في عدوية نغمه وخفة روحه وحرارة عاطفته . وكان الحسين أعف منه لساناً إذ لم يكن يسف إلى الفحش إسفافه ، وقد عمّر عمرّاً طويلاً حتى وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً وبلغ من الكبر عتياً . وكان طبيعياً أن ينصرف عنه حينئذ الجراي . وفي ذلك يقول :

عَذِيرِي مِنْ جَوَارِي الْحَيِّ إِذْ يَرْغَبُنْ عَنْ وَصْلِي

(١) القواقر : القداح كما مر . والأكواس : الريم : الظبي خالص البياض . الكتوس .

رَأَيْنَ الشَّيْبَ قَدْ أَلْبَسَنِي أُبْهَةً الْكَهْلِ
فَأَعْرَضَنَ وَقَدْ كُنَّ إِذَا قِيلَ أَبُو شَيْبَلٍ
تَسَاعَيْنَ فَرَقَعْنَ الْكُؤَى بِالْأَعْيُنِ النَّجْلُ^(١)

ومرّ بنا هجاء الخنساء جارية هشام المكفوف له ، وله فيها هجاء مسف إسفافاً شديداً ، وهو في هجائه يفحش إلى درجة بعيدة تؤذى الأذواق السليمة . وكان قد اشترى كبشاً لعيد الأضحى فظل يعلفه ويسمّنه ، وأفلت يوماً منه على قنديل كان يُسرجه بين يديه وعلى سراج وقارورة للزيت ، فكسر القنديل وانصب الزيت على ثيابه وكتبه وفراشه ، فلما رأى منه ذلك ذبحه قبل الأضحى ، ونظم قصيدة في رثاء قنديله يقول فيها :

يَا عَيْنُ بَكِّي لَفَقْدِ مَسْرَجَةٍ كَانَتْ عَمُودَ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ
صَيْنِيَّةَ الصِّينِ حِينَ أَبْدَعَهَا مَصَوِّرُ الْحَسَنِ بِالتَّصَاوِيرِ
مَسْرَجَتِي كَمْ كَشَفْتَ مِنْ ظُلْمٍ جَلَّيْتَ ظُلُمَاءَهَا بِتَنْوِيرِ
إِنْ كَانَ أَوْدَى بِكَ الزَّمَانُ فَقَدْ أَبْقَيْتَ مِنْكَ الْحَدِيثَ فِي الدُّورِ

ومضى بصور كيف انتقم للمسرجة ، فذبح الكبش ومزقه بالمدى وألقى به في القدور وكيف أن السنانير والحداة والغربان والكلاب طعمت من لحمه وعظامه ، وكان ذلك عرساً لها جميعاً بدون مزامير ومغنين . وتلك عاقبة البغي ، مصرعه وخيم . ودخل داره بعضُ أصدقائه ورأى أن يعيث به ، وألفته ثلث قرطاس كان يحتفظ به أبو الشبل ، فأخذه ولم يُعلمه بما صنع ، فلما مرت بعض أيام جاء صديقه ، فأنشده مرثية طويلة لذلك الجزء من القرطاس ، وفيه يقول :

فِكْرُ تَغَنِّيٍّ وَحُزْنٌ طَوِيلٌ وَسَقِيمٌ أَنْحَى عَلَيْهِ النَّحُولُ
لَيْسَ يَبْكِي رَسْمًا وَلَا طِلَالَةً حَ كَمَا تُنْدَبُ الرُّبَى وَالطَّائِلُ^(٢)
إِنَّمَا حَزَنُهُ عَلَى ثُلْثٍ كَا نَ لِحَاجَاتِهِ فَعَالَتُهُ غَوْلُ^(٣)

(٣) غالته : أهلكته .

(١) الكوي : الحروق في الأبواب والنوافذ .

(٢) مح : عفا وذرس .

كان للسرِّ والأمانة والكَيْدِ مان إنَّ باحَ بالحديث الرسولَ

وضحك صديقه طويلاً . واعترف له بأخذه ، وردَّه عليه . وهذا هو أبو الشبل ماجن خليع ، يسرف في الخلاعة والمجون ، بل في الاستهتار والتهتك ، وهو مع ذلك صاحب نوادر ، لا نوادر يحكيها فحسب ، بل نوادر حدثت له كان يحكيها وينظم فيها أشعاره .

عبد الله^(١) بن العباس بن الفضل بن الربيع

حفيد الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين ، نُشِّئُ في الحلية والترف والنعم ، وقد عُنِيَ أبوه بتعليمه وثقيفه حتى أحسن الشعر ، وكان يقوله على الطبيعة مُرْسِلاً نفسه على سجيئتها ، لا يتكلف فيه ولا يتعسَّل . ويقول أبو الفرج شعره مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين وأولاد النعم ، ويقول : كما كان شاعراً مطبوعاً كان مغنياً محسناً جيد الصنعة . ويقال إن سبب تعلمه الغناء أنه تعلق بجارية لعمته رقية كانت تتقن الغناء ، تسمى عَسَّالِيج ، شغفت قلبه حباً ، فكان يلزمها بعلة الغناء . وكان يأخذ عنها وعن صواحبها ما أحسنه من الأصوات والأدوار ، حتى أقرن له بالحدق . وصار يلزم من يختلفون إلى بيته من المغنين أمثال إسحق الموصلي ، وكاد لا يترك لهم صوتاً دون أن يأخذه . وكان جوارى الحارث بن بسخسر وابنه محمد يدخلن إلى داره فيطرحن على الجوارى بها ما ليس عندهن من غناء . وكل ذلك أتاح له أن يتثقف بالغناء ، بل أن يصبح ماهراً فيه . وترتفع شهرته في إحسانه إلى آذان الخلفاء ، فيطلبونه اسماع أغانيه ، وكان أول من طلبه الواثق ، وله فيه أصوات مدحه بها ، وغنَّاه فيها فلأه طرباً ، من ذلك ما يُروى من أن الواثق عوفى من مرض ألمَّ به فطلبه مع طائفة من المغنين ، فلما صار قريباً من مجلسه بحيث يسمع صوته ضرب على عود مغنياً بيتين قالهما في طريقه إليه على هذا النمط :

١٠ / ٣٦ والديارات ص ٦٣ وما بعدها
وذيل زهر الآداب ص ١١٥ .

(١) انظر في عبد الله وحياته وأشعاره الأغاني
(طبعة الساسي) ١٧ / ١٢١ وتاريخ بغداد

اسلم وعمرك الإله لأمة بك أصبحت قهرت ذوى الإلحاد
لو تستطيع وقتك كل أذية بالنفس والأموال والأولاد

وكان الواثق يغمره بجوائزه وصلاته ، وغمره من بعده المتوكل بالأموال ، ويقص
صاحب الأغاني من ذلك بعض أخبار ، وله فيه أيضاً مدائح قصيرة كان يغميه بها
فيهتز طرباً ، وفيه يقول :

أكرم الله الإمام المرتضى وأطال الله فينا عمرة
سره الله وأبقاه لنا ألف عام وكفانا الفجرة

وكان يغني الخليفتين والمنتصر من بعدهما في غزل كثير من أشعار السابقين
وفي كثير من غزله الذى نظمه في عساليج وفي غيرها من الجوارى اللاتى فنّ قلبه
وفي مقدمتهن مصابيح جارية الأحدب المقيّين وكانت تغنى في كثير من شعره .
وهى جارية نصرانية هام بها قلبه هياماً شديداً ، ويقال إنه كان يلزم بيع النصارى
في أعيادهم من أجلها شغفا بها ، وفيها يقول :

تثنى بحسن جيد غزال وصلب مفضض آبنوس
كم رأيت الصليب في الجيد منها كهلال مكمل بشموس

وتتردّد في غزله أسماء الأعياد المسيحية كما يتردد ذكر كثير من الديارات مثل
دير سرجس ودير قوطا القريب من بغداد ، وكان ينزل فيهما أياماً مع بعض رفاقه ،
يشربون ويقصفون ويسجنون ، وله يصور ما كان من هذا المجون والقصف والشراب
مع بعض صحبه في دير قوطا ، إذ يقول :

يا دَيْرُ قُوطَا لقد هيّجت لي طرباً أزاح عن قلبي الأحزان والكربا
كم ليلة فيك واصلت السرور بها لما وصلت لها الأدوار والنحبا
في فتية بذلوا في القصف ما ملكوا وأنفقوا في التصابي المال والنشبا^(١)

(١) النشب : المال والمقار .

وهو يكثر من الحديث عن صاحبتة النصرانية وعن جوارى البيعة والأديرة ،
وكأنما كان قلبه يتبعهن جميعاً ويتمنى لو استطاع أن يجنى معهن زهرات الحب ،
أو لو أتيح له ذلك من حين إلى حين ، ومن قوله في إحدى جوارى الدير
السالف :

وشادنٍ ما رأت عيني له شَبهاً في الناس لا عَجَمًا منهم ولا عَرَبًا
إذا بدا مقبلاً ناديتُ واطرباً وإن مضى مُعْرضاً ناديتُ : واحرباً
ويصرح مراراً بأنه لا يحب سوى خمر الأديرة المعتقة ، لما كان يخامره فيها من
سكرين : سكره بالخمر الحقيقية وسكره برؤية الراهبات المتبتلات ومن يراهن
هناك من العذارى الفاتنات . وله يتحدث عن خمر قرية من قرأهن تسمى كركين
وعن يوم الشعانين وهو العيد المسيحي الذي يقع في يوم الأحد قبل عيد
الفيصح :

ألا أضبحاني يومَ الشعانين من قهوة عُنقَت بِكَرْكِينِ
عند أناسٍ قلبي بهم كَلِفُ وإن تولّوا ديناً سوى ديني

ومن الحق أنه لم يكن يُبقي لنفسه شيئاً من الخشمة في مجونه، وهو من هذه
الناحية شبيه بأبي الشبل، بعيد الشبه من الحسين بن الضحاك مع أنه كان مثله يعاشر
الخلفاء والأمراء ، وكان هذه العشرة كانت شيئاً سطحياً ، وهو نفسه كان حفيد
وزير ومن أسرة رفيعة أو أرستقراطية . وربما جاءه ذلك من أنه كان لا يفريق من
الخمر ، إذ يقول أبو الفرج إنه كان يشرب الصَّبُّوح كل يوم من دهره ما عدا أيام
الجمع وشهر رمضان ، فهو نهاره سكران ، وكذلك كان ليله . ومثله يسف ويهبط
إلى الدنيا ، لذلك لا نعجب إذا رأينا الشابتي يقول عنه : « كان صاحب غزل
ومجون كثير التطرح في الديارات والحانات والاتباع لأهل اللهو والخلاعة » . ومع
ذلك له غزل كثير رقيق اشتهر به بين معاصريه، ويروى أن ابن الزيات وزير
الواثق وكان أديباً بارعاً في الشعر والنثر قال له : أنشدني شيئاً من شعرك ، فقال
إنما أعبت ببعض الأبيات ، ولست بمكان من ينشدك شعره ، فقال له : أتقول هذا
وأنت القائل :

يا شادناً رامَ إذ مَ رَّ في الشعانين قَتلى
تقول لى كيف أَصْبَحَ ت كيف يُصْبِحُ مثلى

أنت والله أغزل الناس وأرقهم شعراً ، ولولم تقل غير البيت الأخير لكفالك
ولكنت شاعراً مجيداً . وروى له الأغاني أشعاراً كثيرة كان يغنى فيها هو وعسايب
ومصاييح وغيرهما من مغنيات العصر ومغنيه . ومن الأصوات التى طرب لها الواثق
طرباً شديداً حين غَنَّاهُ بها قوله :

بأبى زورُ أَتَانى بالفَلَسِ قمت إجلالاً له حتى جَلَسَ
فَتَعَانَقْنَا جميعاً ساعة كادت الأرواحُ فيها تُخْتَلَسُ
قلتُ يا سُؤلى ويا بَدَرَ الدُّجى فى ظلام الليل ما خفت العَسَسُ
قال : قد خفتُ ولكنَّ الهوى آخذُ بالروح منى والنَّفَسُ
زارنى يَخْطِرُ فى مِشيتِه حوله من نور خَلَيْتِه قَبَسُ

والقطعة بديعة فى خواطرها وفى تصويرها للهيام بالمعشوق ، والمعشوق نفسه وجماله
الساحر الوضىء ، وأيضاً فى صياغتها وموسيقاها . وشعر عبد الله كله شعر وافر الموسيقى ،
وهو شىء طبيعى لأنه كان يغنيه ويوقعه على آلات الطرب ، وكان الجوارى والمغنون
من حوله يغنون فيه ، فكان يضعه فى نسق موسيقى ، تشترك فيه آذانه الداخلية : أذن
الشاعر وأذن المغنى وأذن الموسيقى ، شركة تصفيه من كل الأدْران ، فإذا ألفاظ الشعر
متلاحمة مع قوافيه تلاحماً إلى أبعد حدود الدقة ، فلا عوج ولا انحراف لا فى
لفظ بل لا عوج ولا انحراف فى حرف ولا فى حركة ، إذ يعم الانسجام والإحكام .
وهذا الأثر الموسيقى فى الألفاظ والحروف والحركات كان يرافقه أثر آخر فى الأوزان
إذ نرى عبد الله يشغف بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة حتى يوفر لأغانيه أو قل
لبعضها كل ما يريد من خفة ورشاقة موسيقية .

شعراء الزهد والتصوف

هذه الموجة من اللهو والمجون إنما كانت مقصورة على البيئات المترفة التي أفسدها الترف وعلى الحانات والأديرة ومن كان يختلف إليها من الناس والشعراء؛ ولم يكونوا يؤلفون إلا شطراً ضئيلاً من الجمهور. أما شطور الجمهور الأخرى فلم تكن تعرف الترف ولا كانت تنغمس في الخمر والإثم، إنما كانت تعرف شطف العيش وتعرف تقوى الله وتجده فيها ما يعينها على احتمال أعباء الحياة، مما جعلها تنصرف إلى سماع الوعاظ في المساجد ببغداد وغير بغداد وسماع أهل الحديث والفقه والتفسير. وكانت دائماً تدوى في آذانهم كلمات الوعاظ والنسّاك وما يدعون إليه من رفض الدنيا ومتاعها الآثم والتفكير في مصير الإنسان وما ينتظره من ثواب وعقاب في الآخرة. وكان هؤلاء النسّاك والوعاظ كثيرين كثرة مفرطة، وكان لكثير منهم حلقات في المساجد يستدير الناس من حولهم فيها لسماع ما يتحدثون به عن الوعد والوعيد وعذاب النار ونعيم الجنان والمحشر وما يكون فيه من أهوال. وفي كل مكان نجد بينهم قصصاً يقصّون على الناس من سير الأنبياء والأئمة الدائرة ما يدفعهم دفعاً إلى العمل الصالح. وتقرأ ترجمات هؤلاء القصاص والوعاظ فتحس فيهم إيماناً صادقاً وورعاً مخلصاً، وكانوا كلما عرض خليفة أو وال على شخص منهم عملاً أو منصباً رفضه في إصرار، مؤثراً حياته الخشنة على اللباس اللين والطعام الطيب والماء البارد، حياة كلها خشوع وزهد واحتقار لمتاع الدنيا في جانب ما أمّل من متاع الآخرة. وظل نفر منهم يرافق الجيوش في الثغور واعظاً وقاصّاً ومذكراً بما أعد الله للمجاهدين والمستشهدين من ثواب عظيم، على نحو ما هو معروف عن أبي العباس الطبري المتوفى سنة ٣٣٥، وكان من أخشع الناس قلباً إذا قصّ، ويروى عن موته أنه قص على الناس بطرسوس (من ثغور الشام) فأدركته روعة مما كان يصصف من جلال الله وعظمته وملكوته فخرّ مغشياً عليه من الموت^(١).

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٥٩/٣.

ولا نبالغ إذا قلنا إن القصاص والوعاظ جميعاً كانوا من هذا الطراز ، وكانوا لذلك قريبين من قلوب العامة ، وقد استطاعوا أن ينشروا موجة حادة من الزهد ، لافى الطبقة العامة وحدها ، بل أيضاً في الطبقات الأرستقراطية ، على الأقل من حين إلى حين ، كأن نرى واعظاً يقف بين يدي هذا الخليفة أو ذاك محذراً من الظلم وعواقبه وداعياً إلى الإقبال على ما عند الله ونسبذ متاع الحياة الزائل ، أو مخوفاً منذراً بالموت وما بعده من العذاب الأليم والتعذيب المقيم . وطبيعي — والزهد قوت العامة في حين كان المحبون قوت الخاصة — أن يتعلق بالإنظم فيه أكثر الشعراء ، حتى شعراء المحبون أنفسهم نرى لهم شعراً زاهداً كثيراً على نحو ما هو معروف عن أبي نواس في العصر الماضي فقد كان الشعر الذي تتطلبه العامة والذي تجد فيه غذاء ومشاعرها وعواطفها ، مما جعل الشعراء ينظمون فيه قصائد ومقطوعات كثيرة . وكان الخلفاء إذا سمعوا منه شيئاً غلبهم التأثير حتى لو كانوا في مجلس شراب على نحو ما يروى عن المتوكل فإن الحِمَاني نقيب العلويين في الكوفة الذي ترجمنا له في الفصل الماضي دخل عليه وهو في مجلس شراب ، فأنشده ^(١) :

باتوا على قُلُلِ الأَجْبال تحرسهم	غُلِبُ الرِّجال فما أَغْنَتْهُمُ القُلُلُ
واستنزِلوا بعد عِزٍّ من معاقلهم	فأودِعُوا حُفراً يابِئسَ ما نزلوا
ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبِروا	أَيْنَ الأَسْرةَ والتَّيجانَ والحُلُلُ
وأفصح القَبْرُ عنهم حين ساءلهم	تلك الوجوه عليها الدودُ يَقْتَتِلُ
قد طالما عَمَروا دوراً لثُحْنهم	ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

ومضى في موعظته وبكى المتوكل بكاء طويلاً حتى بَلَّتْ دموعه لحيته وبكى مَنْ حضره ، وأمر برفع الشراب ، وكأنما ثاب إلى رشده . ومن كان يكثر في العصر من الوعظ في شعره العتاهية وأشعار أبيه الزاهدة مشهورة . ويقول ابن المعتز عن الأب إنه كان ناسك الظاهر وكان خبيث الدين يذهب مذهب التَّشَوُّيَّة ، أما الابن فكان صحيح الدين ورعاً وولى القضاء برهة ، ويروى له موعظة حاثية يستهلها بقوله ^(٢) :

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٦٤ .

(١) مروج الذهب ١ / ١١ .

أَرَاكَ شَيْبٌ فِي السَّوَادِ يَلُوحُ يَبْثُ بِأَسْبَابِ الْبِلَا وَيَنُوحُ

والموعظة تدور على أن الشيب ناقوس الموت . وقد بدأ يدق بقوة ، فعمما قليل ستهزق الروح . ويذكر المرزبانى شاعراً معاصراً للمعتز من المعتزلة ، ويقول إن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد المبدأين المعروفين في الاعتزال ، ثم يذكر له أشعاراً^(١) كلها مواعظ ودعوة إلى التقوى ، وتخويف من الموت وما بعده . وقد قلنا آنفاً إن شعراء اللهو ومن وراءهم من شعراء الخمر كثيراً ما نظموا في الزهد ، ولا يكاد شاعر ممن ترجمنا لهم يخلو ديوانه أو تخلو أشعاره من بعض أبيات زاهدة ، وفي ديوان ابن المعتز والصنوبرى وابن الرومى زهد كثير ، ولعل أحداً لم يرسم صورة الزاهد في هذا العصر كما رسمها ابن الرومى في قصيدة بديعة من قصائده ، نكتفي منها بالأبيات التالية^(٢) :

بات يَدْعُو الواحد الصمدا في ظلام اللَّيْلِ منفردا
في حَشَاهُ من مَخَافَتِهِ حُرُقاتٌ تَلْدَعُ الكَا
كلما مَرَّ الوعيد به سَحَّ دَمْعُ الْعَيْنِ فَاطْرَدَا
قائلٌ : يا منتهى أَمَلِي نَجَّيْنِي مما أَخَافُ غَدَا
وخطيئاتي التي سَلَفَتْ لستُ أَحصى بعضها عددا
وَيَحْ عَيْنِي سَاءَ ما نَظَرْتُ وَيَحْ قَلْبِي سَاءَ ما اعْتَقَدَا

وهذه الموجة الحادة من الزهد أخذت تلتقي بها منذ أواخر القرن الثاني الهجرى موجة صوفية ، تعد وليدة الموجة السابقة ، ومرربنا في الفصل الثاني حديث مفصل عن نشأتها وتطورها ومقوماتها وكيف أنها قامت على فكرة المحبة الإلهية وما يتصل بهذه الفكرة من إنكار الذات ومن التوكل على الله توكلًا خالصًا . ونغضى في العصر ويلقانا ذو النون المصرى الذى يُعَدُّ الأب الحقيقى للتصوف ، وهو أول من تكلم عن المعرفة الصوفية فارقًا بينها وبين المعرفة العلمية والفلسفية التى تقوم على

الفكر والمنطق ، على حين تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة ، فهي معرفة باطنة تقوم على الإدراك الحدسي ، ولها أحوال ومقامات ، ومن قوله يخاطب ربه^(١) :

أَمُوتُ وما مَاتَ إِلَيْكَ صَبَابَتِي وَلَا قُضِيَتْ مِنْ صِدْقِ حُبِّكَ أَوْطَارِي
تَحْمَلُ قَلْبِي فِيكَ مَا لَا أَبْثُهُ وَإِنْ طَالَ سَقَمِي فِيكَ أَوْطَالَ إِضْرَارِي

ويخلفه أبو يزيد البسطامي فيذيع فكرة الفناء في الذات الإلهية ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، ويقصد بها تجرد النفس عن رغباتها وقسمتها لشهواتها وانمحاء إرادتها في الإرادة الإلهية . ونمضي حتى نلتقي بالجنيد رأس الطبقة الثانية من المتصوفة ونراه يعبر عن فناءه في الذات الربانية بمثل قوله^(٢) :

أَفْنَيْتَنِي عَنْ جَمِيعِي فَكَيْفَ أَرْعَى الْمُحَلَّ

وهو الذي عمل على ترسيخ نظام الطرق والمريدين في التصوف ، وكان يكثر من العبارات والشطحات الموهمة في مواعظه . وكان يعاصره أبو الحسن النوري ، وكان شاعراً ، ويكثر في أشعاره من التعبير عن الحب الإلهي وفكرة الفناء في الذات العلية بمثل قوله^(٣) :

تَأْمَلْ بَعَيْنَ الْحَقِّ إِنْ كُنْتَ نَازِراً إِلَى صِفَةٍ فِيهَا بَدَائِعُ فَاطِرٍ
وَلَا تُعْطِ حَظَّ النَّفْسِ مِنْهَا لَمَّا بَهَا وَكُنْ نَازِراً بِالْحَقِّ قُدْرَةَ قَادِرٍ

ويلقانا أبو الحسين سَحَنُونُ الخَوَاصِ ، وله شعر كثير في المحبة الربانية وما يصحبها من وجد لا يماثله وجد وشوق لا يماثله شوق ، وكذلك في فكرة الفناء المطلق في الله بحيث لا يصبح في المتصوف أي فضل لإحساس أي شيء من حوله ، فقد فنيت فيه جميع الصفات والرغبات ولم تبق إلا رغبة واحدة هي رغبة الانمحاء في الذات الربانية التي تملك عليه كل شيء من أمره ، يقول^(٤) :

(١) طبقات الصوفية للسلي ص ٢٧ .

(٢) السلي ص ١٥٥

(٣) السلي ص ١٥٦

(٤) السلي ص ١٨٩

وكان فؤادى خالياً قبل حبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمزح
فلما دعا قلبي هواك أجابه فلست أراه عن فنائك يبرح
رُميتُ ببينٍ منك إن كنتُ كاذباً وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كل شيء في البلاد بأسرها إذا غبتَ عن عيني بعيني يملحُ

ومن تلامذة الجنيد المهمين أبو علي الرُّوذباري ، وكان يقول : المريد الذي لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له ، يريد أنه هو الذي تفي إرادته في الإرادة الإلهية ، بحيث لا يحس المريد أو المتصوف شيئاً في الكون سوى الله ، وكان شاعراً ومن شعره في فكرة الفناء وغياب روحه عن حِسِّ أي شيء من أشياء الكون^(١) :

روحي إليك بكلِّها قد أجمعتُ لو أنَّ فيها هُلُكها ما أفلعتُ
تبكي عليك بكلِّها عن كلِّها حتى يُقال من البكاء تقطعتُ

والبيتان يحملان فكرة الفناء وفكرة المحبة التي تخلِّص النفس لربها . والفكرتان تندخلان في التصوف ، فالمحبة التي ننكر الذات تنتهي إلى فكرة الفناء والغياب عن كل حسٍّ وكل خاطرة إلا الذوبان في الذات العلية . ونعرض لاثنتين من كبار المتصوفة بشيء من التفصيل وهما الحلاج والشبلي .

الحلاج^(٢)

أشهر تلاميذ الجنيد هو الحسين بن منصور المعروف باسم الحلاج ويقال إن أباه هو الذي كان حلاًجاً يحلج الصوف أو القطن أما جدّه فكان مجوسياً أسلم ودخل في الدين الحنيف ، وقد نشأ في مدينة تُسَمَّى ، فلزم سهلاً التسترى

والنجوم الزاهرة ٢٠٢/٣ وشذرات الذهب
٢٥٣/٢ وكتاب أخبار الحلاج (طبع
باريس) وكتاب في التصوف الإسلامي
لنيكلسون (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر)
وكتابه الطواسين نشر ماسينيون بباريس
وكتاب ماسينيون عنه .

(١) السلمي ص ٣٦٧
(٢) راجع في ترجمة الحلاج وأخباره وأشعاره
السلمي ٣٠٨ وتاريخ مسكويه ١/ ٧٦
والفهرست ص ٢٨٣ والفخرى في الآداب
السلطانية ص ١٩٢ وتاريخ بغداد ٨/ ١١٢
والطبري ١٠/ ١٤٧ وابن الأثير وتكملة
تاريخ الطبري ص ٢٣ وابن خلكان

الصوفي ، الذى أضاف إلى التوبة عند المتصوفة عنصر الندم ، والذى أخذ عن الشيعة فكرة عمود النور محل نفوس المؤمنين ، وكأن الله يتجلى فيهم منذ البدء . وقدم بغداد بعد أن أصبح مزوداً بكثير من المعارف وصحب الجنيد وأخذ عنه شطحاته وعباراته الطائفة الموهمة ، وبالع فيها وأسرف إسرافاً شديداً ، ووقع في نفسه أنه أعلى من الجنيد في عالم التصوف وأرفع ، وأنه رقى مرتبة الكمال التي طالما حلم الجنيد ببلوغها دون أن يدركها . وفارقة متجهماً إلى أداء فريضة الحج وأقام بمكة سنة ، ثم أخذ يطوف في البلدان وتعرّف في طوافه على أبي بكر الرازي أشهر أطباء العصر وتخرج عليه في الفلسفة اليونانية وعلم الكيمياء ، وتعمق في طوافه ورحلاته حتى بلغ الهند ، وتعرف فيها على ما يشيع بها من السحر والشعبذة والنيرنجيات . وفي عودته التحق بالقرامطة وتمثّل عنهم عقيدتهم . وأدى فريضة الحج للمرة الثانية ، وعاد إلى بغداد سنة ٢٩٥ للهجرة وأخذ ينشر بها آراءه في أن الزاهد إذا تحمل المشاق والآلام وظل يصنّف نفسه بالمجاهدات والرياضات المضنية انتهى إلى الدرجة الرفيعة التي يبتغيها إذ يتمثّل في نفسه حقيقة الصورة الإلهية التي سَوّأها الله فيه ، وبذلك يصبح هو والحق بمنزلة سواء . وجادله أستاذه الجنيد في هذه الفكرة طويلاً ، غير أن كثيرين من المريدين اجتمعوا حوله ، وأخذ يُكثر من الشطحات ومن الكلام الموهوم للكفر والخروج حتى على متصوفة عصره من مثل «أنا الله» ، ويقال إن الشبلي قال له : بل أنت بالله ، ومثل «أنا الحق» ، ويقال إن الجنيد قال له : بل أنت بالحق . ويبدو أنه كان يضيف إلى ذلك بعض الشعبذات والمخلوطات الكيميائية التي تعلمها على الرازي والنيرنجيات التي تعلمها في الهند ، وأحاطت به ريب المعتزلة واتهموه بالزندقة ، وأثار الفقهاء عليه رجال الدولة ، فسيق إلى السجن لسنة ٣٠١ وظل فيه ثمان سنوات ، كان يُسمّح له فيها بأن يزوره مريدوه وأن يتراسل مع من يشاء . وحاولت «شغب» أم الخليفة المقتدر وحاجبه نصر أن يخلصاه من السجن ، فدعا الوزير حينئذ حامد بن العباس قضاة المذاهب الأربعة لمحاكمته ، وانعقدت جلسات المحاكمة ، وتقدم الشهود ، وشهدوا بأنه ادعى الربوبية والنبوة ، ولكنه أنكر ذلك ، وثبت عليه أنه يقول بأن الحج ليس من الفرائض الواجب أدائها شرعاً . ولعل هذه التهمة هي التي دفعت الفقهاء إلى الفتوى بـ«صلبيه» ، فقد أنكر ركناً أساسياً من أركان الدين . ويبدو أنه لم يكن يُحِلُّ المتصوف الذي بلغ مثل منزلته بالمجاهدات

الشاقة من فريضة الحج وحدها ، بل كان يحلُّه من جميع الفرائض رافعاً عنه التكليف إذ أصبح مساوياً للحق. ومن الممكن أن يكون دعا سراً للقرامطة وأن تكون هذه الدعوة من الأسباب في سجنه وصلبه. وقد نُفِّذَ الحكم عليه في الثاني عشر من ذى القعدة لسنة ٣٠٩ فضُرب ألف سوط ثم قُطعت يده ورجلاه ، وحُزَّ رأسه ونُصب يومين على الجسر ، ثم حُمِلَ إلى خراسان فطُيف به هناك ، أما جثته فأُحرقت وأُلِيَ برمادها في دجلة . وهرب مریدوه إلى خراسان وأخذوا يُحْيُون بها ذكراه ، وظلت خالدة على مرِّ الأجيال بين متصوفة العرب والفرس والترك .

وكان أهم ما جعل بعض العلماء والناس في عصره حتى اليوم يذهبون إلى زندقته نظريته في الخالق وخلقته فقد كان يظهر أنه يؤمن في الخالق بتزييه كما يبدو ذلك في كلمات كثيرة له مثل : «إن الله تعالى لا تحيط به القلوب ولا تدركه الأبصار ولا تمسكه الأماكن ولا تحويه الجهات ولا يتصور في الأوهام ولا يتخايل للفكر ولا يدخل تحت كيف ولا يُسَمَّت بالشرح والوصف » وهذا تنزيه مطلق عن التشبيه بال مخلوقات ولكنه كان يعود فيقول إن الإنسان إذا أقبل على تحمل المشاق والآلام انطبعت في نفسه الصورة الإلهية ، فالله يُرَى فيه ، مع إيمانه بأنه غير مخلوقاته وأنه فوق كل شيء ، وهذا هو معنى قوله : أنا الله وأنا الحق ، فهو صورة له ، وليس هو بعينه ، وكأنما الأثر القديم : «إن الله خلق آدم على صورته» ، هو الذي جعله ينطق بالكلمتين السابقتين ، وهو لا يريد ظاهرهما ، إنما يريد أن الله يتجلَّى فيه ، كما يتجلَّى في خلقه ومن هنا أثر عنه أنه كان يقول : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه . وهو لم يستمد النظرية من الأثر السابق وحده فقد استمدّها أيضاً من نظرية الناسوت واللاهوت اللذين يؤلفان الطبيعة الثنائية للمسيح ، إذ آمن باتحاد الناسوت وهو الروح الإنساني في اللاهوت وهو الروح الإلهي ، وبذلك يظهر الله بصورته في الإنسان ، ونراه يصرح بذلك إذ يقول في الطَّوَّاسين :

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ سِرَّ سَنَّا لَاهُوتِهِ الشَّاقِبِ
ثُمَّ بَدَأَ لَخْلُقَهُ ظَاهِراً فِي صُورَةِ الْآكَلِ وَالشَّارِبِ
حَتَّى لَقَدْ عَايَنَهُ خَلْقُهُ كَلْحَظَّةٍ الْحَاجِبِ بِالْحَاجِبِ

وهو يشير في البيت الأول إلى آدم وفي البيتين الثاني والثالث إلى ذريته ، فهم جميعاً ناسوت يُظْهَر أسرار اللاهوت ، ويصدق ذلك على الحلاج كما صدق عند المسيحيين على عيسى ، ومن هنا قال عن نفسه كما قدمنا : أنا الحق أو أنا الله ، ومثّل ذلك في عبارات طنانة ، وهو فيها تارة يشعر بالانفصال بين الطبيعتين وأنهما لا تتمزجان في مثل قوله : « اللهم إنك المتجلي من كل جهة المتخلي من كل جهة ، بحق قيامك بحق وبحق قيامي بحقك ، وقيامك بحق يخالف قيامي بحقك ، فإن قيامي بحقك ناسوتية وقيامك بحق لاهوتية » . وتارة ثانية يشعر بأنهما ممتزجان امتزاجاً تاماً ، يقول مخاطباً ربه :

مُزِجَتْ رَوْحُكَ فِي رَوْحِي كَمَا تُمَزَّجُ الْخَمْرُ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ
فَإِذَا مَسَّكَ شَيْءٌ مَسَّنِي فَإِذَا أَنْتَ أَنَا فِي كُلِّ حَالٍ
وكانه يشاهد الله في ذاته ، أو كأنما حلّ اللاهوت فيه بالضبط كما آمن المسيحيون في المسيح ، فالروح الإلهية أو اللاهوت يحلّ فيه حتى لتشع أنواره في كل كيانه ، ويصور ذلك بمثل قوله :

حَوَيْتِ بِكُلِّي كُلَّكَ يَا قُدْسِي تَكَاشَفْنِي حَتَّى كَأَنَّكَ فِي نَفْسِي
وقوله :

أَنْتَ بَيْنَ الشُّغَافِ وَالْقَلْبِ تَجْرِي مِثْلَ جَرِي الدَّمْعِ مِنْ أَجْفَانِي
وَتَحُلُّ الضَّمِيرَ جَوْفَ فَوَادِي كَحُلُولِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَبْدَانِ
وهكذا تجرى على لسانه كلمة الحلول ، وكل ذلك يؤكد أنه تثقف بالثقافة المسيحية وعرف ما قيل فيها من طبيعة المسيح معرفة بيّنة واستقر في نفسه أن كل ما قيل عن اللاهوت والناسوت فيه يصدق على كل متصوف جاهد جهاداً عنيفاً في الاتصال بربه ومحبه محبة تملك عليه الشغاف من قلبه ، حتى ليحس في قوة بالاتحاد معه ، مما جعله يقول :

أَنَا مَنْ أَهْوَى ، وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنًا
فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

وقد رفع الرسول صلى الله عليه وسلم مراتب فوق جميع الخلق ، ويبدو أنه أول من أعد لفكرة الحقيقة المحمدية ، وأن محمداً بتلك الحقيقة لا بصورته الجسدية يُعَدُّ مبدأ العالم ، إذ هو النور الذي تَفَجَّرَتْ من ينباعه جميع أنوار النبوات ، بل هو مبدأ الوجود كله ونَسَبُهُ الفَيَاض السابق لكل موجود ، أو بعبارة أخرى هو الحقيقة الإلهية السارية في الوجود .

وتكثر عنده كلمات الوجد ولهيبة المشتعل في القلب والسكر ونشوته التي تفقده وعيه والفناء الذي تَفَنَّى فيه جميع حواسه ، حتى ليرى كأن وجوده هو نفس وجود الذات العلية ، وفي ذلك يقول :

إذا بلغ الصَّبُّ الكمالَ من الهوى وغاب عن المذكور في سطوة الذكر
فشاهدَ حقاً حين يشهده الهوى بأن صلاة العارفين من الكفر

فكمال الحب الصوفي عنده أن يجاهد المتصوف ويعاني ويلقى الأمرين في حبه بمداومة ذكر محبوبه وتسبيحه حتى ليغيب عند ذكره حين تأخذه نشوته به ، فيغيب عن ربه ويغيب عن الوجود كله . وحينئذ يصل المتصوف إلى حال تجعله يؤمن بأن صلاة أمثاله من الكفر ، وهو يريد أنه حين يصل إلى هذه الحال يرتفع عنه التكليف . وبذلك يتضح أنه هو الذي أعد للانفصام بين أهل الحقيقة من المتصوفة وأهل الشريعة من الفقهاء . وظل هذا الانفصام قائماً بعده عند الغلاة من المتصوفة حتى رتب فتنه القشيري والغزالي في القرن الخامس الهجري . ويُسَمَّدَى ويُعِيد في تصوير مجاهداته وما يحمل فيها من أهوال طوال وآلام ثقال ، كقوله في بعض مناجاته للذات العلية : « أنت نَعْلَم ولا تُعْلَم ، وتَرَى ولا تُرَى . . . وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبك وعواطر قربك أستحقر الراسيات . وأستخف الأرضين والسموات ، وبحقك لو بيعت مني الجنة بلمحة من وقتي أو بطرفة من أحر أنفاسي لما اشتريتها . ولو عرضت على النار بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتُها في مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك عني » . ومن قوله في وصف مجاهداته :

لقد ركبتُ على التغيرير واعجباً ممن يريد الشُّجَا في المسلك الخطير
كأنني بين أمواجٍ تقلبني مقلَّبٌ بين إصعَادٍ ومنحدرٍ

الْحَزَنُ فِي مَهْجَتِي وَالنَّارُ فِي كِبْدِي وَالْدَّمْعُ يَشْهَدُ لِي فَاسْتَشْهَدُوا بِصَمِي

وَلَعَلَّنَا لَا نُنْبَعِدَ إِذَا قُلْنَا إِنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِي فِكْرَةَ أَنَّ
الْأَدِيَانِ جَمِيعَةً تُوَدِّي إِلَى اللَّهِ . وَفَقَطْ تَخْتَلِفُ شَعَائِرُهَا ، وَكُنْهَا تَتَّحِدُ فِي الْغَايَةِ .
وَبِذَلِكَ تَخْطِئِي حُدُودَ الْإِسْلَامِ إِلَى حُدُودِ الدِّيَانَاتِ جَمِيعَةً ، مِمَّا جَعَلَهُ يَقُولُ :

أَلَا أَبْلَغُ أَحَبَّائِي بِأَنِّي رَكِبْتُ الْبَحْرَ وَانْكَسَرَ السَّفِينَةُ

فَفِي دِينِ الصَّلِيبِ يَكُونُ مَوْتِي وَلَا الْبَطْحَا أُرِيدُ وَلَا الْمَدِينَةَ

وَهُوَ لَا يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ انْسَلَخَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَأَصْبَحَ لَا يَرِيدُ الْمَوْتَ فِي بَطْحَاءِ
مَكَّةَ وَلَا فِي الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ . إِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ يَرَى اللَّهَ فِي الْمَسْجِدِ وَفِي الدَّيْرِ وَفِي
كُلِّ مَعْبَدٍ مِنْ مَعَابِدِ الدِّيَانَاتِ . فَالْدِّيَانَاتُ جَمِيعَةً عِنْدَهُ سَوَاءٌ . وَفِي الْحَقِّ أَنَّ أَشْعَارَهُ
وَأَقْوَالَهُ تَحْمِلُ كَثِيرًا مِنَ الْإِيهَامِ وَالْغُمُوضِ حَتَّى لَتَصْبِحَ أَحْيَانًا — كَمَا فِي كِتَابِهِ
الطَّوَّاسِينِ — أَلْغَازًا خَالِصَةً .

الشَّيْبِيُّ (١)

كُنِيَّتُهُ أَبُو بَكْرٍ . وَاسْمُهُ دُلْفُ بْنُ جَسَّحَدَرٍ ، وَقِيلَ : جَعْفَرُ بْنُ يُونُسَ ،
وَقِيلَ جَعْفَرُ بْنُ دَلْفٍ ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ . وَأَصْلُ أَهْلِهِ مِنْ أَشْرُوسَةِ جَنُوبِ طَشْتَشَقَنْدُ
الْحَالِيَةِ . فَهُوَ تَرْكِي الْعِرَاقِ . رَفِيَ أَبُوهُ فِي قَصْرِ الْخِلَافَةِ حَتَّى أَصْبَحَ حَاجِبُ
الْحُجَّابِ ، وَكَانَ خَالَهُ يَلِي إِمْرَةَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ بِمِصْرَ . وَيَبْدُو أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِهِ فِي عَمَلِهِ
لَعَدَّةِ سَنَوَاتٍ إِذْ يَزْعَمُ بَعْضُ مَنْ تَحَدَّثُوا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مِصْرِيًّا وَأَنَّهُ وَرَدَ بَغْدَادَ مِنْ
مِصْرَ . وَقَدْ تَرَكْتَ مِصْرَ وَالْإِسْكَندَرِيَّةَ فِيهِ بَعْضُ طَوَّابِعِهِمَا . إِذْ نَرَاهُ يَعْتَنِقُ مَذْهَبَ

وَحَلِيَةِ الْأَوَّلِيَاءِ لِأَبِي نَعِيمٍ ٣٦٧ / ١٠ وَتَلْبِيسِ
إِبْلِيسَ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ ٣٤٧ وَشَذَرَاتِ الذَّهَبِ
٣٣٨ / ٢ وَرَوْضَاتِ الْجَنَاتِ ص ١٦٠ وَدِيَوَانَهُ
(طَبْعُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعِرَاقِيِّ) بِتَحْقِيقِ كَامِلِ
مُصْطَفَى الشَّيْبِيِّ وَمَا ذَكَرَ فِيهِ وَفِي تَقْدِيمِهِ مِنْ
مَرَاجِعَ

(١) انْظُرْ فِي الشَّيْبِيِّ وَحَيَاتِهِ وَأَشْعَارِهِ السَّلْمِي
ص ٣٤٠ وَتَارِيخَ بَغْدَادِ ٣٨٩ / ١٤ وَابْنَ
خُلِكَانَ وَنَشَوَارَ الْمُحَاضِرَةِ لِلتَّنَوُّخِيِّ ١٧٢ وَالدِّيْبَاجِ
الْمَذْهَبِ لِابْنِ فَرَحُونَ ص ١١٦ وَصِفَةِ الصَّفْوَةِ
١٦١ / ٢ وَالْأَنْسَابِ لِلْسَمْعَانِيِّ الْوَرَقَةِ ٣٢٩
وَتَذَكْرَةِ الْأَوَّلِيَاءِ لِفَرِيدِ الدِّينِ الْعَطَّارِ ١٢٧ / ٢

المالكية الذى كان يعتنقه أهل الإسكندرية ومحافظة البحيرة القريبة منها . وعاد إلى العراق ، فقرّبه منه الموفق - ولى عهد المعتمد وصاحب الأمر من دونه في خلافته - واتخذّه حاجباً له ، ثم ولاّه دُنْباوند . بالقرب من الرّىّ ويَحْدُثُ منه ما يجعل أمير الرى التابع له يصرفه عن عمله . وكان ذلك نعمة كبرى عليه ، فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة وخاصة مجلس خير النّسّاج تلميذ السّرى السّقطى ، وأبى حمزة البغدادى وعلى يديه تاب وأتاب . ولم يلبث أن لحق بالجُنَيْد أستاذ الصوفية ببغداد حينئذ ، ويقال إنه عاد إلى ولايته يستسمح الناس ويطلب منهم العفو إن كان قد أساء إلى أحد منهم وفرّق أمواله فى الفقراء ، ورجع إلى الجنيد فأخذته برياضات ومجاهدات عنيفة ، ويدكرون أنه قال له فى أول سلوكه الطريق : « لقد حدثنى أن عندك جوهرة العلم الرّبّانى . فإما أن تمنحنيها ، وإما أن تبيعنيها ؟ فقال له الجنيد : لا أستطيع أن أبيعكها فما عندك ثمنها ، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها ، ألنّك بنفسك غير هَيَّاب فى عُبَابِ هذا المحيط مثلما فعلتُ ، فعَلَمَك - إن صبرت - أن تظفر بها » . ومضى الشبلى يجاهد ويضنّى فى جهاده ويشتقى طوال حياة شيخه الجنيد حتى إذا توفى سنة ٢٩٧ صحب الحلاج ، وكان يزوره فى سجنه ، ولكنه لم يعتنق مذهبه الذى صورناه آنفاً وما اتصل به من أفكار اللاهوت والناسوت والحلول والاتحاد ورفع التكاليف الشرعية ، فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصوفية والشرعية متابعاً أستاذه الجنيد فى اتباع الكتاب والسنة ، بل فى التفقه ورواية الحديث النبوى ، وبذلك لم يترك الحلاج فيه أى أثر . ويزعم بعض من تحدثوا عنه من القدماء أنه كان شيعياً ، وقد عرفنا آنفاً أنه كان مالكي المذهب ، وهو لذلك يُسَلِّك مع أهل السنة . ويقال إنه لما قُتِل الحلاج خشي على نفسه لتردده عليه ، فتظاهر بالخلب لثلاً يُمْتَسَحَن ، وأدخل المارستان ، ثم خرج منه ، وتفرّغ للوعظ ، فكان ينعقد له مجلس أيام الجمع ، يحضره الناس على تفاوت طبقاتهم ، وكان يحضره على بن عيسى وزير المقتدر ، وذاع صيته ، فكان يقصده الطلاب والمتصوفة من كل فجّ . وما زال يحتلّ ببغداد هذه المكانة العلية حتى توفى سنة ٣٣٤ للهجرة عن سبعة وثمانين عاماً .

وكان السبلى فى تصوفه دائماً سُنِّيًّا ، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعد عن ظاهر الشريعة ، ويقال إنه سئل مَنْ أَسْعَدُ أصحابك بصحبتك ؟ فقال : أعظمهم لحرمت الله وألهمهم بذكر الله وأقوهم بحق الله وأسرعهم بإدارة فى مرضاة الله وأعرفهم بقضائه وأكثرهم تعظيماً لما عظم من حرمة عبادته . وكان يقول إن الله موجود عند الناظرين فى صنعه مفقود عند الناظرين فى ذاته ، وسأله سائل : هل يتحقق العارف بما يبدو له ؟ فقال : كيف يتحقق بما لا يثبت ؟ وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر ؟ وكيف يأنس بما يخفى ؟ ولم يلبث أن قال :

فَمَنْ كَانَ فِي طَوْلِ الْهَوَى ذَاقَ سَلْوَةً فَإِنِّي مِنْ لَيْلٍ لَهَا غَيْرُ ذَائِقِ
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نَلْتُهُ مِنْ نَوَالِهَا أَمَانِي لَمْ تَصُدُقْ كَلِمَةَ بَارِقِ
فهو لم يكن يقول حتى بالشهود فضلاً عن الحلول والاتحاد . وكان ينكر كل ما قيل ، أو بعبارة أدق كل ما قاله الحلاج عن تجلى الله فى عبده ومخلوقاته ، فالله واجب الوجود وخالق العالم شئ والعالم بكل ما فيه من مخلوقات شئ آخر ، وهو يخاطب ولكن لا يرى ولا يشاهد ، يقول :

وخطبتُ وجوداً بغير تكلمٍ ولاحظتُ معلوماً بغير عيانِ
وكان يقول : « تعززت به وما افترقنا وكيف نفرق ولم يتجزر علينا حال الجمع أبداً » . وكان يتحدث كثيراً عن الأحوال والمقامات ، ويُسبِّدُ ويُعبدُ فى الحديث عن حبه ، ومن قوله : « أدخلتُ المارستان كذا وكذا مرة ، وأسقيت الدواء كذا وكذا مرة ، فلم أزد إلا جُنوناً » ، وكثيراً ما كان ينشد قوله :

جَرَى حَبِّكَ فِي قَلْبِي كَجَرَى الْمَاءِ فِي الْعُودِ

وقوله :

هذه دأرهم وَأَنْتَ مُحِبٌّ ما بقاء الدموعِ فِي الْأَمَاقِ

ويطيلُ الحديث عن عذابه فى حبه وما يتحمل فيه من أهوال وما يسكب من دموع غزار ، حتى فى العيد ، فالناس فيه يفرحون ويُعيدون الراح والريحان وآلات الطرب ، أما هو فيُنْفِضِي إلى حزن شديد ونوح وتعيد ، حتى لكأنما يحمل تحت

ثيابه قبراً ، فهو دائم البكاء دائم النواح ، يقول :

قَبُورُ الْوَرَى تَحْتَ التُّرَابِ وَلِلْهَوَى رِجَالُ لِهَمٍ تَحْتَ الثِّيَابِ قَبُورُ
وَعِنْدِي دُمُوعٌ لَوْ بِكَيْتُ بِبَعْضِهَا لِفَاضَتْ بِحُورٌ بَعْدَ بَحُورِ

وكان يؤمن بالفناء في الذات الإلهية مثل أستاذه الجنيد ، ولكن لم يكن يقنّى فيه عن نفسه الواعية ، فتصوفه دائماً تصوف صَحْوٍ لا تصوف غَيْبٍ ، وإن بدا في كلامه أحياناً أن فناءه إنما يكون في حال غيبة من مثل قوله وقد سُئِلَ : متى يكون العارف بمشهد الحق ؟ فأجاب : إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد وذهبت الحواس واضمحلت الإحساس ، وذُكِرَ عنه أنه كان يقول : « هذا مجنون بنى عامر كان إذا سُئِلَ عن ليل يقول : أنا ليلي ، فكان يغيب ليلي عن ليلي حتى يبق بمشهد ليلي ويغيبه عن كل معنى سوى ليلي ، ويشهد الأشياء كلها بليلي » . ولكن ينبغي ألا نظن من مثل هذا القول أنه كان يؤمن بانمحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود مثل الحلاج ، إنما يريد الإحساس بالفناء في الذات العلية ، ومن طريف ماله من ذلك قوله :

تَسْرَمَدَ وَقِي فَيْكَ فَهُوَ مُسْرَمَدٌ وَأَفْنَيْتَنِي عَنِي فَعُدْتُ مُحَدَّدًا
وَكُلُّي بِكُلِّ الْكَلِّ وَضَلُّ مُحَقَّقٌ حَقَائِقُ حَقٌّ فِي دَوَامٍ تَخَلَّدًا

وقوله :

تَغْنَى الْعُودُ فَاشْتَقْنَا إِلَى الْأَحْبَابِ إِذْ غَنَّى
وَكُنَّا حَيْثَا كَانُوا وَكَانُوا حَيْثَا كُنَّا

وكان ينكر كل ما تورط فيه الحلاج من شعوزات ونيرنجيات مما رواه عنه بعض مريديه ، وتتردد على لسانه كثيراً كلمة السكر ، وسأله سائل : هل شاهد الله أحدٌ بحقيقته ؟ فقال : الحقيقة بعيدة ، ولكن ظنون وأمانى وحُسْبَان .

شعراء الطرد والصيد

مَرَّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن الخلفاء والوزراء وعِليَّة القوم شُغِفُوا
 بالصيد والطَّرْد حينذاك وأن الشعراء وفي مقدمتهم أبو نواس نظموا طَرْدَ يَنَاتٍ كثيرة،
 اختاروا لها وزن الرجز، ولأبي نواس نحو خمسين طَرْدَ يَّة أحسن فيها غاية الإحسان.
 واستمر الخلفاء وأبناءؤهم وكثير من الناس في هذا العصر يُولَّعون بالصيد، وبمن كان
 يولع به من الخلفاء ولَعْنًا شديدًا المتوكل، إذ كان يُولَعُ بالفهود والصيد بها كما
 كان يولع بالشبَّاك. ولعل خليفة في العصر لم يُشَغَفْ بالصيد كما شُغِفَ المعتضد
 ومَرَّ بنا في الفصل الثاني أنه كان يخرج لصيد الأسود، ويقال إنه كان يتقدَّم لها
 وحده، وفي ذلك يقول له بعض معاصريه^(١):

يا صائد الأسد إن صَيْدَ كَها لجامعٌ خَلَّتَيْنِ من رَشَدٍ
 فَلَذَّةٌ تُجْتَنَى ومنفعةٌ للسالكين السَّيْلُ والقَعْدُ^(٢)

ويذكر الصابى أنه كان يُنْفِقُ يوميًّا سبعين دينارًا لأصحاب الصيد من
 البازياريين والفهَّادين والكلَّاب^(٣). وورث ابنه المكتفى عنه هذه الهواية، فكان
 يولع بالفهود والعقبان والصيد بهما. وكان المعتز مثلهما يخرج للصيد في مواكب
 حافلة. وانتشر ذلك بين ذوى الوجاهة انتشارًا واسعًا. مما أهَّلَ لازدهار شعر
 الطرد في العصر، حتى كاد لا يكون هناك شاعر نابه لا ينظم فيه طَرْدَ يَّة بل طرديات،
 وقد مضوا ينظمونها في بحور وأوزان مختلفة غير مكثفين بالرجز، إذا نحن
 استثنينا ابن المعتز، وكأنه رأى أن يظل متمسكًا بوزنها القديم، أما معاصروه فرأوا
 الاتساع بها، بحيث تُنظَّمُ في أى وزن حسب مشيئاتهم الفنية، ولم يتركوا ضاربيًا
 من ضواري الصيد إلا وصفوه ولا جارحًا من جوارحه إلا نعتوه، نعتوا الكلاب

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٧٣. (٢) كتاب الوزراء ص ١١ وما بعدها.

(٢) القعد: جمع قاعد.

والفهود والبُرْاة والشواهين والصقور والعقبان ، ونعتوا الصيد من حُمر الوحش وأُسْنَه
وثيرانه وبقره وظبائه ونعامه وكذلك من الأرناب والثعالب والذئاب والآساد والطير
والإوز ، وألما بآلاته من النَّبْل والسهم والنشَّاب والفيخاخ والشباك والحبال المسماة
بالأوهاق التي تُجْعَلُ في أطرافها أنشوطة وتُرْمَى على الحيوان فتمسك بهنقه ،
والجلاّحق وهو بندق مدور من طين يُرْمَى به . وكان لهذا النشاط الواسع في الصيد وما
يتصل به من الشعر أثر في أن أخذت تُولَّف كتب مختلفة في البَيْزرة وفي المصايد
والمطارد . تفصّل القول في الصيد وآلاته وضواربه وجوارحه . وقد نُظِمت حينئذ
طرديات كثيرة . لا نستطيع أن نستقصيها ولا أن نستقصي شعراءها أكثرتهم
المغرطة . ونكتفي بالوقوف عند أعلامهم ، وأول من نقف عنده على بن الجهم ،
وكان قد خرج يوماً مع طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان إلى الصيد واتفق
لهما في مَرَجٍ للزعفران كثير من الطير والوحش . فاصطادا منهما كثيراً بالبزاة
والصقور والشواهين والكلاب . وفي ذلك يقول ^(١) :

وَطَيْئْنَا رِياضَ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ عَلَيْنَا الْبُزَاةَ الْبَيْضَ حُمَرَ الدَّرَاجِ ^(٢)
وَلَمْ تَحْصِهَا الْأَذْغَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا أَبْعَنَّا حِمَاهَا بِالْكَلابِ النَّوَاجِجِ ^(٣)
بِمُسْتَرَوِّحَاتٍ سَابِحَاتٍ بِطُونُهَا عَلَى الْأَرْضِ أَهْثَالُ السَّهَامِ الزَّوَالِجِ ^(٤)
وَمُسْتَشْرِفَاتٍ بِالْهُوَادِي كَأَنَّهَا وَمَا عَقَفَتْ مِنْهَا رُمُوسُ الصَّوَالِجِ ^(٥)
وَمِنْ دَالَعَاتٍ أَلْسِنًا فَكَّأَنَّهَا لِحَى مِنْ رِجَالٍ خَاضِعِينَ كَوَاسِجِ ^(٦)
فَلَيْنَا بِهَا الْغَيْطَانَ فَلْيَا كَأَنَّهَا أَنْأَمَلُ إِحْدَى الْغَايَاتِ الْحَوَالِجِ ^(٧)
قَرْنًا بُزَاةً بِالصَّقُورِ وَحَوْمَتِ شَوَاهِينَنَا مِنْ بَعْدِ صَيْدِ الزَّمَامِجِ ^(٨)
وهو يصور الصقور والكلاب تصويرات بديعة . فنقار الصقر كأنه صَوْلِحَان ،

الصوالج : جمع صولجان .
(٦) دالعات : مخرجات . الكواسج : جمع
كوسج وهو من لحيته على ذقنه دون عارضيه .
(٧) فلينا : فحصنا . الحوالج : اللان
يخلصن البذور من القطن .
(٨) الزمامج : جمع زمج : طير جارح
أصغر من العقاب

(١) ديوان علي بن الجهم ص ١٢٠ .
(٢) الدراج : جمع دراج وهو طير ملون
الريش .
(٣) النواجج : النواجج .
(٤) مستروحات : تشم آثار الصيد .
سباحات : ممرعات . الزوالج : التي تنزل بسرعة .
(٥) الهوادي : الأعناق . عقلت : توجت .

والكلاب حين تَدْنَعُ ألسنتها لاهثات كأنما ألسنتها لِحْيَى مرسلة على الذقون ، وقد فحصت المرج البُرْاة والكلاب فحصاً دقيقاً حتى لكَأَنها أنامل دقيقة اسيدة تفلّي القطن وتخلّص الحبّ منه ، فلا تبقى حبة مختبئة ، بل كل الحب يُسْتَخْلَصُ ، تستخلصه أنامل مرهقة . ومرّ بنا في الفصل الرابع تصوير البحترى لصيد الأسد وكذلك تصويره لصيده الذئب وقد لقيه في فلاة موحشة ، وهما لوحتان رائعتان . ولابن الرومي غير قصيدة في الطَّرَم والصيد ، ونكتفي من طردياته بالقطعة التالية التي يصور فيها صَيْدَ صِحابه للطير . وقد تقلّدوا أوعية حمراء من جلد أودعوها كثيراً من البُنْدُق الذي يَرْمِي به . وأشرعوا أقواسهم مسدّدين البندق منها للطير الهاجع وقت السحر ، يقول ^(١) :

وَجَدْتُ قِيسَ الْقَوْمِ فِي الطَّيْرِ جِدَّهَا	فَظَلَّتْ سَجُودًا لِلرَّمَاءِ وَرُكْعًا
ظُرَانِحَ مِنْ بَيْضٍ وَسُودٍ نَوَاصِعِ	تَخَالُ أَدِيمَ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَبْقَعًا ^(٢)
فَكَمْ ظَاعِنٍ مِنْهُمْ مُزْمِعِ رِخْلَةٍ	قَصَرْنَا نَوَاهِ دُونَ مَا كَانَ أَزْمَعًا ^(٣)
وَكَمْ قَادِمٍ مِنْهُمْ مُرْتَادٍ مَنْزِلِ	أَنَاخَ بِهِ مِنَّا مُنِيخٌ فَجَعَجَعًا ^(٤)
هَنَالِكَ تَغْدُو الطَّيْرُ تَرْتَادُ مَضْرَعًا	وَحُسْبَانَهَا الْمَكْدُوبُ تَرْتَادُ مَرْتَعًا
مَبَاحٌ لِرَامِيهَا الرَّمَايَا كَأَنَّمَا	دَعَاها لَهُ دَاعِيَ الْمَنَايَا فَاسْمَعَا
لَهَا عَوْلَةٌ أَوَّلَى بِهَا مَا تُصَيِّيه	وَأَجْدُرُ بِالْإِعْوَالِ مَنْ كَانَ مَوْجَعًا
وَمَا ذَاكَ إِلَّا زَجَرُهَا لِبِنَاتِهَا	مَخَافَةً أَنْ يَذْهَبْنَ فِي الْجَوْ ضُيْعًا
وَزَلَّ صِحَابِي نَاعَمِينَ بَبُوسَهَا	وَزَلَّتْ عَلَى حَوْضِ الْمَنِيَّةِ شُرْعًا ^(٥)

وبيث ابن الرومي في وصفه حيوية خافقة ، فالطير ما تنى ساقطة ساجدة راکعة ، منها ما هبط إلى الأرض جشّة هامدة ، ومنها ما هو في سبيله إلى الهبوط ، وهي مطروحة في الأرض أبيضها وأسودها ، وكأنما أصبحت الأرض أديمًا مخطّطًا ،

(١) الديوان ص ٣٠٠ .

(٢) الأبقع : ما به سواد وبياض .

(٣) يريد بالنوى وجهته في الارتحال .

(٤) الجمجمة : صوت البير ورغازه عند إناخته .

(٥) شرعاً : واردة الماء .

وكم طائر كان يريد الارتحال فحالوا بينه وبين وجهته ، وكم طائر كان يريد المقام سقط دون أمنيته ، وهو يصرخ صراخ البعير عند إناخته ، لقد كان يريد المرتع الحصب فإذا هو يجد المصراع الذى لم يكن له على بال ، وكأنما دعاه ودعا رفاقه من الرمايا داعى الموت فأسمع وأصممتى ، والطير تُعَوِّل غير متنبهة للرمى والرماة ، خيفة على بناتها من أن تضل الطريق فى الجو ، على حين تترامى على حياض الموت ، يؤس ما بعده يؤس والصائدون ناعمون نعيمًا ما بعده نعيم . وقد عرضنا فى غير هذا الموضع بعض طرديات لابن المعتز . وعلنا لا نبالي إذا قلنا إنه أكبر شاعر نظم طرديات فى العصر . ويذكر مترجموه أنه صنَّف كتابًا فى جوارح الصيد وضواريه ، ولا يكاد ضار أو جراح يُفُتلت منه فى شعره أو قل فى طردياته ، فمنها ما يصف فيه كلاب الصيد وفهوده ومنها ما يصف فيه بُزَّاته وصقوره ، ومنها ما يصف شباكه وبندقه ، ودائمًا تجرى الكلاب وراء الظباء والأرانب حتى تصيدها وقلما أفلتت منها . ومن قوله فى كلبة ماهرة فى الصيد^(١) :

قد أَغْتَدَى والليلُ كالْغُرَابِ دَاجِى القِنَاعِ حَالِكِ الحِضَابِ
بكلبةٍ تَاهَتْ على الكلابِ تفوت سبْقاً لَحْظَةً المرتابِ
تنساب مثل الأرقم المنسابِ كأنما تنظر من شهاب
بمقلةٍ وَقَفٍ على الصوابِ

فهو يخرج بكلبته وقت السحر ، والليل لا يزال فى دُجَاه وحلوكته ، تصحبه كلبة تسيّاه على الكلاب بسرعتها حتى لتسبق لحظة من وقعت فى نفسه الريبة ، فهو ينظر خِلْسَةً وفى سرعة يريد أن يتحقق من صحة رَيْبِهِ ، وهى تنساب زاحفة كأنها أفعى ، مسرعة لا تلوى ، ناظرة لا بعين لدسّاحة ، وإنما بشهاب قبس ، مقلة لا تخطئ الصيد ، بل دائماً تصيب وتصيد . ومن قوله فى وصف باز من بُزَّاته^(٢) :

والمصايد والمطارد الكشاف ص ٦٧ .

(١) الديوان وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٩ .

(٢) أشعار أولاد الخلفاء للصولي ص ٢٠٩ .

ذو مقلة تَهْتِكُ أَسْتَارَ الْحُجُبِ كَأَنَّهَا فِي الرَّأْسِ مِسْمَارُ ذَهَبٍ
يَعْلُو الشَّمَالَ كَالْأَمِيرِ الْمُتَنَصِّبِ أَمَكْنَهُ الْجَوْدُ فَأَعْطَى وَوَهَبَ
ذو مَنَسْرِ مِثْلَ السِّنَانِ الْمُخْتَصِبِ وَذَنَبٌ كَالذَّيْلِ رَيَّانُ الْقَصَبِ^(١)
كَأَنَّ فَوْقَ سَاقِهِ إِذَا انْتَصَبَ مِنْ حُلُلِ الْكَتَّانِ رَانًا ذَا هُدْبِ^(٢)

وتشبيه مقلة البازي الصفراء بمسمار الذهب تشبيهه بديع ، ويقول إنه يقف رافع الرأس كالأمير يفرق عطاياه ويهب ما يصيد ، ثم يصف منسره بأنه كسنان الرمح المخضب بالدماء من كثرة ما يصيد ، ويقول إن ذنبه كالذيل الزاهي بريشه ، وكأن فوق ساقه ثوباً أبيض من الكتان تسترسل أهله ، وله في باز آخر^(٣) :

فَارُسُ كَفٍّ مَائِلٌ كَالْإِسْوَارِ ذَوْجُوجُورٍ مِثْلَ الرِّخَامِ الْمَرْمَارِ^(٤)
أَوْ مَصْحَفٍ مُنَمَّنٍ ذِي أَسْطَارٍ وَمَقَلَةٍ صَفْرَاءٍ مِثْلَ الدِّينَارِ
تَرْفَعُ جَفْنًا مِثْلَ حَرْفِ الزُّنَّارِ وَمَخْلَبٍ كَمِثْلِ عَطْفِ الْمِسْمَارِ
وهو فارس كف لأنه يُحْتَمَلُ على الكف عادة . ويقول إن صدره مثل الرخام الناعم أو مثل المصحف المزخرف بالسطور ، أما مقلة فصفراء مثل الدينار ، وأما جفنه فكحرف الزنار الذي يضعه النصارى في أوساطهم تمييزاً لهم ، وأما الخلب فكعطفة المسمار . وله يصف فهدة^(٥) :

وَلَا صَيْدٌ إِلَّا بَوْثَابَةٌ تَطِيرُ عَلَى أَرْبَعٍ كَالْعَذَبِ^(٦)
فَإِنْ أُطْلِقَتْ مِنْ قِلَادَاتِهَا وَطَارَ الْغِبَارُ وَجَدَّ الطَّلَبُ
فَزَوْبَعَةٌ مِنْ بَنَاتِ الرِّيحِ تُرِيكَ عَلَى الْأَرْضِ شَيْئًا عَجَبُ
تَضُمُّ الطَّرِيدَ إِلَى نَحْرِهَا كَضَمِّ الْمَحَبَّةِ مِنْ لَا يَحِبُّ
فَأَرْجُلُهَا كَالْخِيوطِ مِنْ خَفْتِهَا ، وَحِينَ تَطْلُقُ مِنْ قِلَائِدِهَا وَيَجِدُ طَلِبَهَا لَطَائِدِهَا

-
- (١) المنسر لسباع الطير بمنزلة المتقار لغيرها . الإِسْوَار : الحاذق في الرمي .
(٢) رَانَا : ثوباً .
(٣) الديوان وديوان المعاني ١٤٠ / ٢ .
(٤) الجُوجُور : الصدر . المَرْمَار : الناعم .
(٥) المصايد والمطارِد ص ١٩٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢١ .
(٦) العَذَب : خيوط ترفع بها الموازين .

ويعلوها الغبار لسرعة عَدْوِهَا تصبح كأنها زوبعة أو عاصفة من بنات الرياح ،
 مما يملؤك عجباً ، وإذا هي قد صادت الطريد وضمتته إلى نَحْرِهَا وصدرها لا ضمَّ
 حنان ولكن ضمَّ عُدْوَان ، كضم الحبة من لا يحبها . وهو تصوير رائع . وللصنوبري
 طرديات مختلفة ، منها قواه في باز^(١) :

ذو مِنْسِرٍ أَقْنَى وَرُسْعٍ كَزَّ وَمِخْلَبٍ لَمْ يَعْدُ إِشْفَاً^(٢) الْخَرْزُ
 مُسْرَبِلٌ مِثْلَ حَيِّكَ الْقَزُّ أَوْ مِثْلَ جَزَعِ الْيَمَنِ الْأَرْزَى^(٣)
 لَمَّا لَزَزْنَا الطَّيْرَ بَعْدَ اللَّزِّ بِأَسْفَلِ الْقَاعِ وَأَعْلَى النَّشْرِ^(٤)
 أَبَآ لَنَا بِالْقَبْجِ وَالْإَوْزُ مِنْ جَبَلٍ صَلَدٍ وَمَرْجٍ نَزَّ^(٥)

وهو يصور منسره ومخالبه الحادة التي يَسْتَقْضُثُ بها على الطير انقضاضاً فلا
 تستطيع منه خلاصاً ، ويصور ثيابه من الريش كأنها الحرير أو كأنها الجزع أو
 الخرز اليماني الذي تغنى به امرؤ القيس ، والطير مبثوثة في القيعان وعلى المرتفعات
 وقد آب منها بكثير من الحجل والإوز . ومن قواه في الطَرْدِ ووصف كلابه وما
 صادت من الوحش^(٦) :

يَا رَوْضَةً مِنْ حُلَلٍ مَا خَاطَهَا خِيَاطُ
 الْوَحْشِ فِي أَرْجَائِهَا قَبَائِلُ أَخْلَاطُ
 غَادِيَتُهَا وَلَمْ يُقِمَّ أَعْلَامُهَا الْعَطَاطُ^(٧)
 بِأَكْلَابٍ لَوْ لَمْ تَطْرُ أَطَارَهَا النَّشَاطُ
 فَجِئْنَا وَالطَّلُّ عَلَى آذَانِهَا أَقْرَاطُ
 انْبَسَطَتْ كَالشُّهْبِ لَا يُعْجِزُهَا انْبِسَاطُ

(١) ديوان الصنوبري ص ١٣٣ .

(٤) النشر : المرتفعات .

(٢) إشفا : مخرز .

(٥) القيج : الحجل . نز : به بعض

(٣) حبيك : محبوبك . القز : الحرير .

المياه .

(٦) الديوان ص ٢٨٧ .

والجزع اليماني : خرز . أرزى : أبيض

(٧) الغطاط : القطا .

كالأرز .

وظفقت والوحش في مجالها بساط
صرعى تشق قمصها عنها ولا تخاط

وهو يبدأ بالحديث عن الروضة مكان الصيد وما انتشر عليها من حُلل الأزار والأنوار ، ويذكر كثرة الوحش بها وأنه باكرها قبل أن يستيقظ القبطا وغيره من الطير مُرسلا عليها كلابه المسرعة التي تكاد تطير طيرانا ، غير آبهة ببرودة الطقس وما قرط به آذانها من الندى ، فقد زحفت وانتشرت كالشهاب الساطع ، تصرع كثيراً من الوحش وتشق عنه جلده وأديمه وتمزقه وتمزقا لا يمكن رتقه . وكما يعرض لصيد البر يعرض لصيد البحر بصنانيره الشبيهة بالأظفار وبالشبكة وعيونها الكثيرة ، وفي ذلك يقول (١) :

أَفْضَلُ مَا أَعْدَدْتُهُ مِنَ الْعُدَدِ وَمَا حَوَى صَحْبِي بِهِ غِنَى الْأَبْدِ
بَنَاتُ قَيْنٍ حَازَ فِي الْحَذَقِ الْأَمْدَ عَلَى مَقَادِيرِ مَخَالِبِ الصُّرْدِ (٢)
لَهَا رَعُوسٌ فِي أَعَالِيهَا أَوْدٌ كَمَثَلِ أَنْيَابِ الْأَفَاعِي وَأَحَدِ (٣)
عُجْنَا بِهَا مِنْ حَيْثُ مَا عَاجَ أَحَدٌ فِي ظِلِّ صَفْصَافٍ عَلَيْنَا قَدْ بَرَدَ (٤)
شَاطِئُ نَهْرٍ لَا بَيْسَ دِرْعَ زَبَدٍ وَلَمْ تَزَلْ تُرْسَلُ طَوْرًا وَتُمَدُّ
ثُمَّ بَعَثْنَا أَلْفَ عَيْنٍ فِي جَسَدٍ فَجَعَلْنَا بِمَثَلِهِنَّ فِي الْعَدَدِ
أَلْفٍ مِنَ الْحَيْتَانِ بَيْضَ كَالْبَرَدِ

وواضح أنه صَوَّر الصنانير والصيد ثم الشبكة وما صوراً فاء الله عليهم من الحيتان الكثيرة . ولعل من الخير أن نكتفي بهذا العرض عند أعلام الشعراء ، وأن نتركهم إلى شاعر اشتهر بكثرة طَرْدِيَّاته في العصر هو أبو العباس الناشي فقد كان ولعاً بالطرد والصيد ، وله طرديات كثيرة .

(٣) أود : عوج إذ تشبه حرف الراء .

(٤) عجنا : عرجنا وانعطفنا .

(١) الديوان ص ٤٧٥ .

(٢) القين : الحداد صانها . الصرد :

طائر ضخم الرأس والمتقار وهو من الجوارح .

أبو العباس^(١) الناشئ الأكبر

هو عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير ، من أهل الأنبار وفيها وُلد ونشأ ، ثم تركها إلى بغداد ، واستقر بها طويلاً ، وفيها تلقن علم الكلام كما تلقن كثيراً من العلوم ، وكان ذكياً ذكاء حاداً ، وصرف ذكائه في مناهضة العباقر من عالمه والعالم الخارجي ، إذ ألف كتاباً ينقض به منطق أرسطو وكتاباً ثانياً ينقض به آراء الخليل ابن أحمد في العروض ومثل لقواعده بغير أمثله . وحاول أن ينقض علل النحويين . ونظم قصيدة طويلة في فنون العلوم والآداب بلغت أربعة آلاف بيت في روى واحد وقافية واحدة لم تصلنا ، وربما كانت منها الأبيات التي أنشدها الحصري له في موضوعات الشعر وصفاته اللفظية والمعنوية . وكان شيعياً ، وربما شيعيته شى إلى جعلته يترك بغداد عاصمة الدولة العباسية إلى مصر ويتوفى بها سنة ٢٩٣ للهجرة .

وله كتاب في تفضيل الشعر مما يدل على أنه لم يكن شاعراً ولا عالماً فقط بل كان أيضاً ناقدًا ، وأهل هذا الكتاب هو الذى جعل أبا حيان التوحيدي يعجب به وبنقده للشعر إذ يقول : « ما أصبت أحداً تكلم في نقد الشعر وترصيفه أحسن مما تكلم به الناشئ المتكلم ، وإن كلامه أيزيد على كلام قدامة وغيره ، وله مذهب حلو وشعر بديع واحتمال عجيب » ، وينقل أبو حيان في تضاعيف كتابه بعض ما قرأه له ، فمن ذلك حديثه عن دواعي الشعر وبواعثه ، وهو يجرى على هذا النمط : « أول الشعر إنما يكون بكاءً على دَمَن ، أو تأسفًا على زمن ، أو نزوعًا لفراق ، أو تلوعًا لاشتياق ، أو تطلعًا لتلاق ، أو إعدارًا إلى سفيه ، أو تخمدًا لطفوة ، أو تنصلا من زلّة ، أو تحضيضًا على أخذ بثأر ، أو تحريضًا على طلب أوتار ، أو تعديدًا للمكارم ، أو تعظيمًا لشريف مقام ، أو عتابًا على طويّة أو متابًا من مقارفة ذنب ، أو تعهدًا لمعاهد أحباب ، أو تحسرًا على مشاهد أطراب ، أو

ومقالات الإسلاميين ص ١٨٤ ، ٥٠٠ وزهر
الآداب ١ / ١٧٧ ، ٣ / ٥٠ ، والمصايد والمطارد
لكشاجم (انظر الفهرس) والعمدة لابن رشيق
٧ / ١ والديارات ص ٢٦ والفهرست ص
٢٥٥ وديوان المعاني ١ / ٢٥٤ و ٢ / ٢٢٨ .

(١) انظر في الناشئ وحياته وأشعاره طبقات
الشعراء لابن المعتز ص ٤١٧ وتاريخ بغداد
١٠ / ٩٢ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ / ١٥٨
وشذرات الذهب ٢ / ٢١٤ والبصائر والذخائر
لأبي حيان ٢ / ١١٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٦١٩٠

ضرباً لأمثال سائرة ، أو قَرَعاً لقوارع زاجرة ، أو نظمًا لحكم بالغة ، أو تزهيداً في حقير عاجل ، أو ترغيباً في جليل آجل ، أو حفظاً لقديم نَسَب أو تدويناً لبارع أدب . والقطعة تلم في دقة بالبواعث النفسية لنظم الشعر ، فهو شاعر بصير بفنه وبصناعته وقد روى له الحصري قطعة في وصفه لشعره يقول فيها :

يتحير الشعراء إن سمعوا به في حُسْنِ صَنَعِهِ وفي تَأْلِيفِهِ
شَجَرٌ بدا للعين حُسْنُ نباته ونَأَى عن الأيدي جَنًا مَقْطُوفِهِ

ويذكر من ترجموا له أنه كان شاعراً بارعاً غزير الشعر ، وسلكه ابن خلكان في طبقة ابن الرومي والبحتري ، ويبدو من بقايا أشعاره أنه نظم في موضوعات شتى ، منها ما يتصل بعلم الكلام وافتخاره بالمتكلمين عامة لما ينيرون من المشكلات الصعبة ، يقول :

مطالع الحق ما من شُبْهَةٍ غَسَقَتْ إِلَّا ومنهم لديها كوكبٌ يَقْدُ (١)
ومنها ما يتصل بالطبيعة وبالعزل ومحال الأنس ، وصب أكثر عنايته على وصف الطرد والصيد وجوارحه وضواريه ومصيداته وآلاته . ويكنى لبيان كثرة هذا الجانب عنده واستنفاده لأكثر شعره أن نجد « كشاجم » يجعل أشعاره ركناً أساسياً صنع « كتابه المصايد والمطارد » فقد اعتمد فيه على طَرْدِ ياته اعتماداً شديداً ، وأول ما نقف عنده في هذا الكتاب طردية له في صيد أحد الكلاب يستهْلِكُها على هذا النمط :

قد أَغْتَدَى والفَجْرُ في حِجَابِهِ لم يَحُلِّلِ العُقْدَةَ من نِقَابِهِ
بِأَغْضَفٍ عَيْشُهُ من عَذَابِهِ من صَوْلَةٍ بِظُفْرٍ ونَابِهِ (٢)
يَرَّاحُ أَنْ يُدْعَى لِيُغْتَدَى بِهِ رُوحَةَ ذِي النِّشْوَةِ من شَرَابِهِ (٣)
يَحُطُّ بِالْبُرْنِ في تَرَابِهِ خطَّ يد الكاتب في كِتَابِهِ (٤)

والطريف في هذا الاستهلال أنه جعل الكلب كادحاً لا يقيم أوده إلا بعرق جبينه وصولاته بظفره ونابه ، وأيضاً فإنه جعله يشمر بنشوة ما بعدها نشوة حين

(١) غسقت : دجت وأظلمت . يقد : يشتعل . (٢) يراح : يجد خفة ونشاطا .

(٢) أغضف : مسترخى الأذن . (٤) البرن : الخلب

يندبه صاحبه للصيد ، وتستحيل الأرض كأنها مَشَّقٌ أو صحيفة وهو يخطّ فيها
ببرائته ، ويُسْتَبَع كساجم هذه الطَّرْدِيَّة بطردية أخرى تطَّرد على هذا السياق :

يا ربَّ كلبِ ربِّه في رزقه يرى حقوقَ النفسِ دونَ حقِّه
متَّبِعاً بِخُلُقِهِ لِخُلُقِهِ كَأَمَّا يملك عَقْدَ رِقِّه
يَصُونُهُ بِجُلِّهِ وَدِقِّهِ كَأَمَلٍ من مالِكٍ لِعِتْقِهِ (١)
تراه في تَسْرِيعِهِ وَرَبِّقِهِ كعاشقٍ أَضْناءَ طُولِ عَشْقِهِ (٢)
أَصْفَرِ يُلْهِى العَيْنَ حَسَنُ خُلُقِهِ كذهبٍ أبرزتَه من حُقِّهِ
ذو غُرَّةٍ فارقةٍ لَمَرْقِهِ وذو حُجُولٍ بَيِّنَتْ عن سَبْقِهِ (٣)

وقد جعل الناشئُ رَبَّ هذا الكلبِ وصاحبه يقدِّمه على نفسه في غذائه ،
ويأتسى به ، حتى لكأنما يشقُّ أخلاقه من أخلاق هذا الكلبِ أو قل السيد المطاع
الذى يملك رقه ، وإنه ليرعاه في كل كبيرة وصغيرة . وكأنه عبد يتقرب لما لكه بكل
ما يصونه ويحفظه حتى يفك رقبته ويرد عليه حرّيته . ويعود إلى فكرة عشق الكلب
للصيد ، فيجعله حين يكون في ربّقه وحبله كعاشق طال عليه البسِينُ والهجران ،
حتى أصابه ضَنْسٌ شديد ، ويتحدث عن حسنه وجمال صفرته الأخاذة وغُرَّتَه في جبهته
وحجواه في سيقانه ، وبياضها يلمع في أثناء عدوه كأنه ضوء ساطع . وله في البازي
طرديات مختلفة يصور فيها حسنه وما خلع عليه الخالق من ريشه وجماله ،
وفيه يقول :

ألبسه الخالقُ من ديباجِهِ ثوباً كفى الصانعَ من نِساجِهِ
حالٍ من السَّاقِ إلى أوداجِهِ وَشياً يحار الطَّرْفُ في اندراجِهِ (٤)
في نَسَقٍ منه وفي انعراجِهِ وزانَ قَوْدِيهِ إلى حِجَاجِهِ (٥)
بزينَةٍ كَفْتَهُ عَزَّ تاجِهِ وَظَفَرُهُ يخبر عن علاجِهِ
لو استضاء المرءُ في إدلاجِهِ بعينه كَفْتَهُ عن سراجِهِ
فانحالت جِلٌّ شأنه كساه ثوباً من الديباجِ يملأ النفسَ إعجاباً بوشيه وخطوطه

(١) الخل والدق : الكثير والقليل .

(٢) الربق : من الربقة وهي حبل يشد منه الكلب .

(٣) الحجول : بياض في سيقان الكلب .

(٤) الأوداج : عروق في العنق .

(٥) الحجاج : عظم الحاجب .

ونقوشه من ساقه إلى مفرقه وعلى رأسه ، وكأنما حلاله بتاج كتاج الملوك المئات بحليه وزينه ، ويذكر مخالفه الحادة حدة الإبر ، وعينه المضيئة ضياء السراج في الليالي الداجية . وينظم في الصقر غير طردية ، وفي إحداها يقول :

سباه مَنْ كَانَ بِهِ خَلِيقًا فَرَحًا صَغِيرًا مَا أَقَلَّ مَوْقَا
زِينَهُ بَرَأْيُهُ شَفِيقًا كَمَا يَصُونُ الْعَاشِقُ الْمَعشُوقَا
حَتَّى انْتَهَى وَحَمَلَ الْحَقُوقَا وَنَفَعَ الصَّاحِبَ وَالصَّدِيقَا

وهو يصور تدريب صاحبه له ، وكيف أنه ربّاه صغيراً وما زال يرعاه محبباً له حب العاشق لمعشوقه ، وما زال يشقّه ويدربّه على الصيد ، حتى مهر فيه . وحتى أصبح يجلب من الإوز وغيره ما ينفع به أصدقاء صاحبه وأحبابه . ومن قواه في وصف شاهين :

يَظَلُّ مِنْ جَنَاحِهِ الْمَزِينِ فِي قُرْطُكِ مِنْ خَزَّةِ الشَّعِينِ^(١)
يَشْبَهُ فِي طَرَاذِهِ الْمَصُونِ بُرْدَ أَنْثَى شِرْوَانَ أَوْ شِيرِينَ
ذُو مَنَسَرٍ مُحَدِّدٍ مَسْنُونٍ وَافٍ كَشَطَرِ الْحَاجِبِ الْمُقْرُونِ

منعطفٍ مثل انعطاف النون

وهو يتحدث عن جمال هذا الشاهين وتلاوين ريشه التي تجعله يلبس قرطقاً أو قباء مفوفاً من الحرير كأنه ثوب أنوشروان أو ثوب شیرين زوج كسرى أبرويز . وإن منسره أو مخلبه المنحني كحرف الراء يشبه شطر حاجب مقرون أو كأنه انعطاف حرف النون . وله طردية طريفة في وصف صيد الطير بالجنّاهق أو البندق . تحدث فيها عن صيد الكراكي . وهي طير طويل المنقار والرجلين . مفردة كركي . ويسمى الغرنيق وجمعه غرائق . ويطرد وصفه عند الناشئ على هذا النمط :

وَوَرْدٍ يُجْدِلُ قَلْبَ الْوَاقِ مَنْظَمٌ بِالْغُرِّ وَالْغَرَانِقِ^(٢)

(١) القرطق : قباء ذو طابق واحد . الغر : طير . (٢) يجدل : يسر . الواق : مديم النظر .

الغرائق : الكراكي .

وكلُّ طيرٍ صافِرٍ أو ناعقٍ مكتهلٍ وبالغٍ ولاحقٍ
 مَوْشِيَّةٌ الصدور والعواتقِ بكلِّ وَشْيٍ فاخِرٍ وفائقٍ^(١)
 تختال في أجنحةٍ خوافٍ كأنما تختال في قرَاطِقِ
 يَرُقْلَانِ في قُمْصٍ وفي يَلامِقِ كأنهن زَهْرُ الحَدَائِقِ^(٢)
 حُمُرِ الحِدَاقِ كُحْلِ الحِمَالِقِ كأنما يَجُلْنَ في مَخَانِقِ^(٣)

وهو يصوّر موردًا عذبًا يسر قلب الناظر إليه رُصّع بالطير والكراكي من صافرة وناعقة وكبيرة وصغيرة، إذ وُشّيت في صدورها وكواهلها بوشى بديع، وقد اكتست أجنحتها بقراطق وأقبية أنيقة، بل إنها لترفل في كُسُوة ذات تلاوين حتى لكانها زهر حدائق مختلف الأصباغ والنقوش. وهى هناك بأحداقها الحمر وجفونها المكحولة، تطوق أعناقها القلائد الباهرة. وفي كتاب المصايد والمطارِد بجانب الطرديات السابقة طرديتان في صيد الأسد، ونرى الناشئ يصوره في إحداهما بهذه الصورة الفذة:

رُبَّ ذِي سِبْلَيْنِ قَسُورَةٍ قد أَحْمَّ الحَيْنُ في أَجْمَةٍ^(٤)
 لا ترى حَيًّا يُطِيفُ به لا ، ولا يَدْنُو إلى حَرَمَةٍ
 كَمِجَنٍّ الحرب هَامَتُهُ وكَعُورِ الغَارِ رَحْبُ فَمَةٍ^(٥)
 وكان البرق ما قدحت عَيْنُهُ بِاللَّحْظِ من ضَرَمَةٍ
 وكان الموت مُعْتَرِضٌ بين لَحْيَيْهِ ومُلْتَشِمَةٍ

وهو يقول إن هذا الأسد القَسُورَة هبط به القضاء في عرينه، إذ حان حينه، بعد أن كان الناس لا يلمّون بحرمته مخافة بأسه وسطوته، لما ملأهم به من الرعب والفرع والهلع، ويقول إن هامته كانت مثل تُرْس حرب صلابة وقوة، وكان فمه كالغار

(١) العواتق: الكواهل.

(٢) اليلامق: جمع يلقى وهو نوع من القباء.

(٣) الحمالق: جمع حلاق، وهو باطن

جفن العين. الخائق: القلائد.

(٤) أحم: نزل. الحين: الموت. الأجم: بيت الأسد.

(٥) المجن: الترس.

العصر العباسي الثاني

يسقط فيه كل ما يَتَقَضَّمه ، أما عينه فمن شدة توقدها كانت كأنها البرق الخاطف ،
وكان الموت كان يحتم على فمه بين لحية وملتهمة .

وللناشي وراء طردياته أشعار كثيرة تدل على أنه حقاً كان صاحب شاعرية
خصبة ، وقد رفلها مبكراً بثقافته الكلامية التي أعدته ليحاور ويداور أرسطو
والخليل بن أحمد وعلماء النحو واللغة ، ولا ريب في أنها وصلته بكل ينابيع الثقافة
في عصره يونانية وغير يونانية ، ويقول من ترجموا له إنه كان يقول في خلاف كل
معنى قالت فيه الشعراء ، غير أنهم لم يوردوا لنا شيئاً من هذا القول ، إنما أوردوا له
هنا وهناك بعض أبيات رائعة الصور من مثل بيتيه اللذين أنشدناهما في الفصل الرابع
وهما في وصف سحاب هاطل .

وفي الحق أنه كان يعرف كيف يولّد الصور وكيف يستخرجها من مكانها
وكيف ينظمها شعراً عذباً ، يحفل بكل ما يملأ النفس إعجاباً به على شاكلة
قوله :

متعاشقان مُكَّامان هواهما قد نام بينهما العتابُ فطابا
يتناقلان اللَّحْظَ من جَفَنِيهِمَا فكأنما يتدارسان كتابا
وقوله :

يلوح في خدّه وَرْدٌ على زهرٍ يعود من حسنه غَضًّا إذا قُطِفَا

والزهر في البيت طبعاً هو زهر النرجس الذي تشبه به العيون ، وعبر عن
القبلة بأنها اقتطاف لورد الحدود ، وجعلها تثير فيها من الحمرة ما يعود بها غَضَّةً
إلى أول مُجَسِّنَاها وباكورتها . وله :

ليس شيء أحرَّ في مُهْجَةِ العا شق من هذه العيون المراضِ
والخُدودِ المضرَّجات اللواتي شيب جِرْيَالُهَا بِحُسْنِ البياضِ
وطروقِ الحبيبِ والليلِ داجٍ حين هَمَّ السَّمارُ بالإغماضِ

فهذه العيون مع مرضها وفتورها تدلّج في قلب العاشق قطعاً من النار ، وتدلج فيه نفس القطع الحدود المشرية بالحرمة ، ويشعله إشعالا ، زيارة المحبوبة ليلا ، وقد همّ السُّمَّارُ بالنوم . والقطعة جيدة ، ويبدو أنه كان قريباً من نفوس الجوارى في بلدته ، فابن المعتز يروى أنه اجتمع مع بعض رفاقه على الشراب في بعض المتنزهات ومعهم قينة محسنة طيبة الصوت ، وما زالت تغنيهم حتى إذا أنشدتها مقطوعة له ختمها بقوله :

وقد آذنونا بوقت الرحيل فإن كنت تهويني فارحلي

يقول ابن المعتز : فلما سمعت الجارية هذا البيت وقعت في قلبها النيران ، وكانت تهواه ويهواها ، فقامت وارتحلت معه ، لكلفها به . واجتمع مع رفاق آخرين ، ودعوا مغنية ، فجاءت ومعها رقيقة جميلة ، فلما أخذ الشراب منه ومن صحبه طلب رقعة وكتب فيها ، موجهاً حديثه إلى تلك الرقيقة :

فديتك لو أنهم أنصفوك لردوا النواظر عن ناظرِك
تردين أعيننا عن سواك وهل تنظر العين إلا إليك
وهم جعلوك رقيقاً علينا فمن ذا يكون رقيقاً عليك
ألم يقرءوا - ويحهم - ما يروى ن من وحي حُسنك في وجنتيك

ولعل في كل ما أسلفنا ما يدل بوضوح على روعة الملكة الشعرية عند الناشئ ، وهي ملكة استطاع أن يَغْدُوها بالثقافات المعاصرة له ، فإذا هي تُصَقِّلُ وإذا هي تزداد خصباً ، وإذا الناشئ لا يزال يُطْرَف سامعيه بخواطر وأخيلة طريفة رائعة .

شعراء شعبيون

لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العربي دائماً كان موصولاً بالشعب ، اتصل به في العصر الجاهلي ، فقد كان الشاعر وشعره صورة لقبيلته ، وظلت له هذه الصلة

في العصر الأموي، وإن تحولت أحياناً من الشعور القبلي إلى الشعور الجماعي، أما منذ العصر العباسي الأول فقد أخذ يغلب الشعور بالروح الجماعية ويقل الشعور بالروح القبلية، حتى إذا كان هذا العصر نضب هذا الشعور جداً بينما ظل الشعور بالروح الجماعية حياً مستعلاً. وكان من أهم العوامل في ذلك أن جمهور الشعراء كان من الطبقة العاملة، وقلما نبع شاعر من الطبقة الأرستقراطية. حتى من عاش من هؤلاء الشعراء حول موائد الخلفاء وفي قصورهم ظل موصولاً بروح الشعب، فهو يتغنى بتقوى الخليفة وبما ينشر من العدالة التي لا تصلح حياة الرعية بدونها. وكانوا يمدحون أبطال المعارك الحربية معبرين عن روح الشباب والحمية الوطنية والإسلامية. وإذا كان المديح يتصل بروح الشعب على هذا النحو فأولى لغيره من أغراض الشعر أن تكون صلته أوثق وأقوى. وحتى حياة الحجون وما اتصل منها بوصف الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية وملاهيها كان يُحسُّها الشعب وتعيشها على الأقل في تلك الأعياد أسراب منه. أما شعر الزهد والتصوف فكان يُلَقَى على العامة وكان من وحى حياتها وما يسرى فيها من شظف وضنك وإعسار. وبهذا الأسلوب نفسه يمكن الوصل بين الغزل والفنون الأخرى وبين الشعب، ولكن ليس هذا ما نريده من الشعر الشعبي الذي نتحدث عنه، فنحن نريد منه نوعاً خاصاً، هو النوع الذي يصور ما كانت عليه الرعية من تعاسة وبؤس، فالخلفاء والوزراء والأمراء وذوو الوجاهة ومن لحق بهم من بعض المغنين والشعراء يعيشون في النعيم وأدواته ووسائله مستمتعين بالحياة أقصى ما يكون الاستمتاع دون أن يبذلوا أي جهد ودون أن يحتملوا أي عناء، على حين ترزح عامة الشعب تحت أثقال البؤس الممضّة جائعة ظامئة، غير آمنة من العبث والطغيان اللذين صورناهما في فصل الحياة الاجتماعية. وكان طبيعياً أن يكثر الشعراء الذين يصورون ما يتجرعونه ويتجرعه الشعب من الفقر والإمعان في البؤس والتعاسة. ومن المؤكد أن جل ما نظموه ضاع، لأنهم من أبناء الشعب، وهم عادة لا يهمهم تسجيل ما ينظمونه، بل هم آخر من يهتم بمثل هذا الشرف، وحتى ما سُجِّل من هذا الشعر لم يسجَّل معه اسم صاحبه إلا نادراً^(١).

وقد هَيَّأَ هذا البؤس لظهور طائفة بين الناس تُعَرِّفُ بالمُكُنْدِينِ ، وأولُ من تحدث عنهم الجاحظُ في مطالع كتابه البخلاء ، وهو يورد فيه أسماءهم وحياتهم في اقتناص الدراهم من الناس ويصوِّرُ البيهقي أعمالهم ونواذرهم^(١) ، وهم جماعات من المتسولين وكان ينضم إليهم كثير من الأدباء والشعراء ، وهم يَكُونُونَ في العصر طبقة كبيرة ، طبقة تتكسب بالتحامق وإضحاك الناس .

وخير من يصوِّرُ طائفة الشعراء المكدين حينئذ أبو العَبَّاسِ^(٢) العباسي الذي عاش في هذا العصر إلى خلافة المنتصر وكان قد ظل خمسين عاماً يَحْيَا حياة جادة إلى أن ولى المتوكل فترك الجِدَّةَ وعدل إلى الحمق والشهرة به ، ويقال إنه لم يكن في عصره صناعة إلا وهو يعملها بيده حتى العجين والخَبْزُ وفي بعض أحاديثه ما يدل على أنه كان ببغداد لعصره معلمون يعلمون الأحداث الهزل ، وأنه أخذ عن معلم منهم ما عُرِفَ به من قلب الكلام رقاعة إذ كان يقول له ولرفقائه : أول ما تصنعون قلبُ الأشياء فكنت أقول إذا أصبح كيف أمسيت ؟ وإذا أمسى كيف أصبحت ؟ وإذا قال لي : تعال ، تأخرت إلى الخلف . ويقال إنه حاول أن يسلِّقَ المتوكل إليه فقلب زِيَّهَ إذ جعل في رجله قلنسوتين وعلى رأسه خُفًّا (حذاء) وجعل سراويله قميصاً وقميصه سراويل . فلما لمح المتوكل قال علىَّ بهذا المُشْطَلِ ودخل عليه فقال له : أنت شارب إني أضع الأدهم (القيد) في رجلك وأنفيك إلى فارس ، فقال توًّا : ضَعْ في رجلي الأشهب وانفني إلى راجل ، فقال المتوكل أتراني في قتلِكَ مأثوم ؟ فقال : بل ماء بصل ، فضحك المتوكل . ويقال إنه أخذ منه أكثر مما أخذه أى شاعر بالجِدَّةِ ، وقد اتخذه في مجلسه أضحوكة ، فكان يرمى به في البركة التي وصفها البحترى في بعض مدائحه ، وتُطْرَحُ عليه الشباك ويُصَاد ، ويخرج وهو يقول :

ويأمر بي ذا الملك فيطرحني في البرك
ويصطادني بالشَّبك كَأَنِّي بَعْضُ السَّمَكِ

الخلفاء للصول ص ٣٢٣ والأغانى (طبع

الساسى) ٢٠ / ٨٩ والفهرست ص ٢٢٣

والواقى بالوفيات (طبع إستانبول) ٢ / ٤١ .

(١) المحاسن والمساوى ٢ / ٤١٣

(٢) انظر في أبى العبر وحياته وأخباره وأشعاره

طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٢ وأشعار أولاد

وسأله ثعلب العالم النحوى المشهور : الظَّبْنَى معرفة أو نكرة ؟ فأجابه : إن كان مشوياً على المائدة فعرفة وإن كان فى الصحراء فهو نكرة ، فقال ثعلب له : ما فى الدنيا أعرفُ منك بالنحو . وكان يَـجْلِسُ الغلمان « الأدبائية » إليه ليسجلوا كلامه ، مما جعله يصنّف لهم كتابَ جامعِ الحماقات ومأوى الرقاعات وكتاب نوادره وكتاب المنادمة ، ويُروى أن غلاماً سأله : لم صار نهر دجلة أعلى من نهر الفرات والقطن أبيض من الكمأة (ثمرة صحراوية أرضية) فأجابه : لأن الشاة ليس لها منقار وذنب الطاوس أربعة أشبار . وكان بهذا وأشباهه تروج بضاعته عند المُكْدِنين من الأدبائية وغير المكدين ، وسُئِلَ عن لغته التى يتكلم بها وما فيها من استحقاقات أى شىء أصلها ؟ فقال : إننى أبكّر فأجلس على الجِيسِرِ ومعى دواة وقرطاس فأكتب كل شىء أسمعُه من كلام الذاهب والجالئ والملاحين والمُكَارِين حتى أملأ القرطاس من الوجهين ، ثم أقطعه عرضاً وألصقه مخالفاً فيجىء منه كلام ليس فى الدنيا أحق منه . وكان ما يزال يُغْرِبُ فى كل ما ينظم من شعر ، ملتزماً للغة العامة وما يشبهها ، ومن قوله فى بعض غزله :

وباضَ الحبُّ فى قلبى فَوَاوَيْلى إذا فَرَّخَ

ويستمر فى مثل هذا الهزل ، وكان ينصح بعض شباب الشعراء من حوله أن يقولوا الشعر جيداً جيداً وإلا فليكن بارداً بارداً مثل شعره ، ومما رواه له ابن المعتز من كلامه الهزلى البارد المضطرب الوزن قوله :

أنا أنا أنت أنا أيا أبو العبرنة
أنا الفنى الحمقوقو أنا أخو المجنة
أنا أحرر شعرى وقد يعجى برَدْنَة

وواضح أنه أضاف إلى أبياته النون المشددة الهاء هزلاً وطلباً لإضحاك من حوله . وله أشعار من هذا النمط كلها هزل ودعابة ، وقد اتخذ الشعراء « الأدبائية » الذين خلفوه إماماً لهم فى مثل هذا الهزل وما كان يَسْلُكُه فى أشعاره من ألفاظ العامة وأساليبهم الركيكة .

ومن شعراء الكُندية الذين ذهبوا مذهب أبي العبر في التحامق والهزل أبو العجل^(١) وله أشعار كثيرة يدعو فيها إلى اتخاذ التحامق حرفة ، وأى حرفة ، لقد درت عليه خيراً كثيراً وأموالاً وبغالاً وغلماناً : يقول :

أيا عاذلي في الحُمُق دَعْنِي مِنَ الْعَذْلِ فَإِنِّي رَخِيُّ الْبَالِ مِنْ كَثْرَةِ الشُّغْلِ
وَمُرْنِي بِمَا أَحْبَبْتَ آتِ خِلَافَهُ فَإِن جِئْتَنِي بِالْجِدِّ جِئْتُكَ بِالْهَزْلِ
وإن قلتَ لي : لِمَ كان ذاك ؟ جوابه لأنِّي قد استكثرت من قِلَّةِ الْعَقْلِ
فأَصْبَحْتُ فِي الْحَقَمَى أَمِيرًا مُؤَمَّرًا وما أَحَدٌ في النَّاسِ يُمْكِنُهُ عَزْلِي
وَصِيرَ لِي حُمَمِي بَغَالًا وَغِلْمَةً وَكُنْتُ زَمَانَ الْعَقْلِ مَمْتَطِيًّا رِجْلِي
فلا داعي للعذل واللوم فإن حرفة الكُندية جعلته سيداً مطاعاً وأثرته ثراءً واسعاً ، وأصبح الناس لا يضيقون به ، بل يرحّبون به في كل مكان . وكان الشعراء المكدون حينئذ يطوفون في بلدان العراق وغير العراق ، جيّالين مكثرين من الأسفار في الاحتياال لطلب الأموال ، وفي ذلك يقول أبو العجل لبعض من عدلوه على كُنديته وحرفته :

أَعْلَى الْحِمَاقَةِ لُمْتَنِي قَدْ كُنْتُ مِثْلَكَ أَوَّلًا
فَدَخَلْتُ مِصْرَ وَأَرْضَهَا وَالشَّامَ ثُمَّ الْمَوْصِلَ
وَقُرَى الْجَزِيرَةِ لَمْ أَدْعُ فِيهَا لِحْيٌ مِنْزِلًا
إِلَّا حَلَلْتُ فِنَاءَهُ بِالْعَقْلِ كَيْ أَتَمُوَلَّا

ومن اتخذ الكُندية حرفةً في العصر أبو عبد الله اليعقوبي وكان كثير الوصف لنفسه بالجوع والفقر والتفصيل ، وروى له المرزباني أشعاراً^(٢) تدخل في الزهد . ونقف قليلاً عند جمحظة والخبز أرزى وتصويرهما لبعض جوانب النزعة الشعبية .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٩ .

(١) انظر فيه وفي أشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز

جحظة^(١)

اسمه أحمد بن جعفر من نَسَل البرامكة ، كان شاعراً حسن الشعر ، وكان يحسن الغناء على الطنبور كما كان يحسن فنوناً مختلفة مثل الطبخ والنجوم ، وله في الطنبوريين كتاب غير كتب أخرى في عدة فنون ، وكان من ظرفاء عصره وصاحب أخبار ومناذمة حاضر النادرة . وابن المعتز هو الذي لقبه بجحظة لقبه الذي اشتهر به إذ كان في عينيه تنوء شديد ، وكان قبيح الوجه تقتحمه العيون ، وفي ذلك يقول ابن الرومي :

وَارْحَمَتَنَا لِمَنَادِيهِ تَحْمَلُوا أَلَمَ الْعُيُونِ لِلذَّةِ الْآذَانِ
وكان الخليفة المعتمد يقرّبه منه ، ولكن بيوت الخلفاء لم تَفْتَحْ له بعده ، وفتحت بعض بيوت الوزراء مثل العباس بن الحسن وزير المكتنّى وابن مقلّة وزير المقتدر . وكان لا يَبْقَى على شيء يَصِلُهُ من خليفة أو أمير أو وزير ، فأكثر أيامه كانت بائسة ، وأولا صنعته الطنبورية لعاش معدماً . وهو من خير من يمثلون حياة الشعب التعمسة ، فقد كان كثير من الحكام والوجهاء يزورون عنه لا لدمامته فقط ، بل أيضاً لما قيل من أنه كان دائماً وسخ الثياب ، وكان شيعياً ، فانصرف عنه كثيرون وأغلَقوا أبوابهم في وجهه . وكل ذلك كان يدفعه دفعاً للاختلاط بأبناء الشعب وكانوا يتعلّقون بشعره ، فما إن ينظم شعراً حتى يدور في بغداد وحتى تتناقله المجالس ويرويّه الشباب وغير الشباب ، حدّث هو نفسه ، قال : كنت يوماً عند عبد الله ابن المعتز فطلبت نَعْلِي فلم أجده ، فجعلت أقول :

يَا قَوْمُ مَنْ لِي بِنَعْلِي أَوْ فِي مَصْحَفٍ نَعْلٍ

يقصد بنَعْلًا يركبه . يقول : فسار هذا البيت حتى رواه الصبيان . وكان كثير من أشعاره الأخرى يرويها الصبيان أيضاً ، وكثير منها يحكى قصة يؤس من مثل قوله :

الآداب ١٣٧ / ٢ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ وتكملة الطبرى ص ٨ ، ١٩٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٠ .

(١) راجع في جحظة وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ٤ / ٦٥ والفهرست ص ٢١٤ ومعجم الأدباء ٢ / ٢٤١ وابن خلّكان والديارات ص ٢١ ، ٤٧ ، ٩٧ وزهر

أنا الذى دينه إسعافُ سائله والضُرُّ يعرفه والبؤسُ والعَدَمُ
أنا الذى حُبُّ أهل البيتِ أفقره فالعدلُ مستعيرُ والجورُ مُبتَسِمُ
وهو يعللُ لبؤسه من بعض وجوهه بتشيعه لأهل البيت كما أسلفنا ، وكأنما عملت
عوامل كثيرة على أن يعيش معيشة بائسة أكثرُ جوانبها ضيقٌ وإقلال فى الرزق ،
وليس المهم أن يعيش تلك المعيشة ، ولكن المهم أن تتعمق أحاسيسه وأن يَصْدُرَ
عنها بمثل قوله :

أَحْمَدُ اللهَ لَمْ أَقْلُ قَطُّ . يَا بَدُّ رُ يَا مُنْصَفًا وَيَا كَافُورُ
لا ، ولا قلتُ أَيْنَ أَيْنَ الشَّوَاهِدِ—يُنُ ووزَّانًا وَأَيْنَ البُذُورِ^(١)
لا ، ولا قيل : قد أَتَاكَ مِنَ الضَّيِّعَةِ بُرٌّ مَوْفَرٌ وَشَعِيرُ
أنا خلَوُ من الممالكِ والآءِ . لَآكِ جَلْدٌ عَلَى الْبَلَا وَصَبُورُ
ليس إِلَّا كَسِيرَةٌ وَقُدَيْحٌ وَخُلِقْتُ أَتَتْ عَلَيْهِ الدَّهْورُ

فهو ليس ممن يخدمهم الغلمان وتكتنظُ بهم داره من مثل بَدَرٍ وَمُنْصَفٍ
وكافور ، وهو ليس ممن يحتاج إلى ميزان ووزَّان يزن الحصاد ، لأنه ليس من
أصحاب الضياع الذين يَجْنُونَ من ضياعهم البرَّ والشعير . ليس عنده أملاك
ولا ممالك إنما عنده الجلد والصبر على احتمال حياة الشظف والحرمان ، عنده ما
يَقْوَتُهُ من كِسْرَةٍ وقُدَحِ ماء وثوب خلَقَ أَكَلَ الدهر عليه وشرب ، وقلبه يمتلئُ
حسرة ولوعة ، فغيره يتقلب فى أعطاف النعيم وهو يتقلب فى أشواك الحسرات
والشقاء والعناء ، يقول :

الحمد لله ليس لى كاتبُ ولا على باب منزلى حاجبُ
ولا حمارٌ إذا عَزَمْتُ على ركوبه قِيلَ جَحْظَةٌ رَاكِبُ
ولا قَمِيصٌ يكون لى بدلا مخافةً من قَمِيصَى الذاهبِ
وأجرةُ البيتِ فهى مُقَرَّحَةٌ أَجْفَانِ عَيْنِ بِالْوَابِلِ السَّاكِبِ

إن زارني صاحبٌ عزمْتُ عليَّ بَيْعِ كتابٍ لشُبُعَةِ الصَّاحِبِ

فهو ليس من أصحاب الجاه والسلطان فلا كاتب له ولا حاجب ، بل ليس من أصحاب الوجاهة والثراء فلا حمار له يركبه لقضاء مهمَّاته كُسِّيَ كِسْوَةَ حَسَنَةٍ ، ولا قميص له جديد بدلا من قميصه البالي ، وما أشد كدره ، فأجرة البيت وعجزه عن سداها ينغصانه ، بل يُبْكِيانه ، حتَّى لقد تفرَّحت أجفانه أكثرَ بكائه ، ولا من رَحم يرق قلبه له أو يعطف عليه . وحتى إن زاره صاحب لم يجد ما يغذوه به ويطعمه له إلا أن يبيع كتاباً من كتبه يشتري له به بعض ما يقيم أودَه . فيا للبؤس وبالله الظلم الصارخ الذي جعل أبناء الشعب يتكدَّحون ويَضُنُّون والحكام يَجِسُّونَ ويقطفون ثمار أعمالهم ولا يُسَبِّقون لهم منها إلا الذلَّ والهوان . ويتناهبه مراراً الشك في حرفته الأدبية وتآليفه وما ينظم من أشعار ، فيقول :

حسبي ضَجِرْتُ من الأدبِ ورأيتُه سببَ العُطَبِ
وهجرتُ إعرابَ الكلا م وما حفظت من الخُطَبِ
ورهنْتُ ديوان النقا نُض واسترحتُ من التعب

فهو قد صمم على أن يهجر حِرْفَةَ الأدب التي لم يكن منها سوى الشقاء والعناء أما كتاب النقائض بين جرير والفرزدق فعن نفاسه رهَّنه ليسُدَّ به رَمَقَه ، وكأنما أحسَّ فيه وفي غيره من كتب الأدب التي صمَّم على هجرانها أعباء ثقالا كانت تَبْهَظُ كَتْفِيه ، فهو يتخلص منها ليريح ويستريح .

وكان طبيعياً أن يشتد سخطه — مع أبناء الشعب — على فساد الحياة السياسية في عصر المقتدر وأن يصبَّ جام غضبه على الوزراء الذين كانوا يعتصرون الشعب ليعيشوا هم والخلفاء والقواد في النعيم ، ولا ضيَرَ من أن يعيش الشعب في الجحيم ، لذلك كان طبيعياً أن يتمنى للوزراء أن تَحْقِيقَ بهم الكوارث حتَّى يتخلص الشعب من ظلمهم وفساد حكمهم . ويروى أن بعض أصدقائه دخل عليه في عصر المقتدر ، فقال له : ما تتمنَّى ؟ فقال تَوًّا : لم يبق لي مُنَى غير نكبات الوزراء ، فقال له : قد نُكِبَ ابن الفرات ، فقال جحظة على البديهة :

أحسنُ من قهوة معتقة تخالها في إنائها ذهباً

من كَفِّ مَقْدُودَةٍ مَنَعَةٍ تَقْسَمُ فِينَا أَلْحَاطُهَا الْوَصْبَا^(١)
نِعْمَةُ قَوْمٍ أَزَالَهَا قَدْرٌ لَمْ يَحْظَ حُرٌّ فِيهَا بِمَا طَلِبَا

فقد أفرحته نكبة ابن الفرات وانتشى بها كما ينتشى السكارى بالخمير
نشوة لا تَعُدُّ لها نشوة . ويشمت به لأن أحداً لم يُصب شيئاً مما كان فيه من
نعمة ، وإنه ليضيق به كما ضاق به الشعب ، إذ كان يملأ الأرض ظلماً وشرّاً
ونُكُراً ، وإنه ليبغضه ويبغض دولته التي حرمت الأحرار كل برٍّ وكل خير .
وكان يكثر من هجاء البخلاء الأشعاء الذين يقدمون الطعام للضيوف على كره منهم ،
وكثيراً ما يصوغ هذا الهجاء في قالب فكاهة من مثل قوله في صديق :

دعاني صديقٌ لى لأَكُلَ القَطَائِفِ فَأَمَعَنْتُ فِيهَا آمناً غيرَ خائفٍ
فقال وقد أوجعتُ بالأكل قلبه رُوَيْدَكَ مَهْلاً فهُيَ إِحْدَى المتالفِ
فقلت له : ما إِنْ سمعنا بهالكِ ينادى عليه : يا قَتِيلَ القَطَائِفِ

وكانت القَطَائِفُ صادفت منه مسغبة وجوعاً شديداً ، فأكل منها أكل النَّهَمِ
وصديقه ينظر إليه شَزْراً ، فقال له : إني أخاف عليك التَّخمة ، بل التلف والهلاك ،
فردَّ عليه هذا الرد الظريف . وله في قوم بخلاء يحفظون القرآن :

قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورة المائدة

وتُرَوَّى له أبيات مختلفة من هذا الطراز تدل على أنه كان حلو الدعابة على
الرغم من قبح وجهه وورثاة ثيابه . وله هجاء كثير لاذع يدل على أنه كان سريع
الإحساس طويل اللسان . ولم يكن يخشى أحداً فهو يهجو الوزراء والحجَّاب وغير
الحجَّاب والوزراء ، وخاصة البخلاء منهم ، وكانوا يتحامونه لما يعلمون من شيوع
شعره على ألسنة الصبيان في الشوارع والأزقة . ومن قوله في ثقیل :

يا لَفْظَةَ النَّعْيِ بِمَوْتِ الْخَلِيلِ يا وَقْفَةَ التَّوَدِّيعِ بَيْنَ الْحُمُولِ

(١) مقدودة : رشيقة القد . الوصب :

يا طلعة النَّعْشِ ويا منزلاً أَفْقَرَ من بعد الأَنْسِ الحُلُولِ
يا نعمةً قد آذنتُ بالرحيلِ ونكسةً من بعد بُرءِ العَلِيلِ

ويستمر طويلاً في وصف الثقيل بمثل هذه الصفات التي تجعله تمثالا لكل شر ، وكأنما تجمعت له شرور الحياة في أسوأ صورها ، لكي يصممه بما يشاء منها ، وتتوالى الشرور في أبشع هيئاتها ، ويضع بينها طلعة النعش ونكسة العليل . وكان يلم بالديارات ، وقد روى الشابشي له بعض أشعار في الخمر كان يغنيها على طنبُوره من مثل قوله في دَيْر أَشْمُونِي وهو فيه :

سَقِيًّا لِأَشْمُونِي وَلَذَاتِهَا وَالْعِشْرِ فَيَا بَيْنَ جَنَاتِهَا
سَقِيًّا لِأَيَّامٍ مَضَتْ لِي بِهَا مَا بَيْنَ شَطِئِهَا وَحَانَاتِهَا

ويبدو أن إلمامه بالأديرة كان قليلا لقلّة أشعاره فيها ، وربما كان الذي أقعده عنها يؤسه الذي كثيراً ما كان يرافقه . وله في الغزل بعض قطع وأبيات طريفة من مثل قوله :

فَقُلْتُ لَهَا : بَخِلْتِ عَلَيَّ يَقْظَى فَجُودِي فِي الْمَنَامِ لِمُسْتَهَامِ
فَقَالَتْ لِي : وَصَرْتَ تَنَامُ أَيْضاً وَتَطْمَعُ أَنْ أَزُورَكَ فِي الْمَنَامِ

وقد توفي سنة ٣٢٣ عن سن عالية ، ويقال إنه عاش نحو قرن ، ولعل فيما أسلفنا من أشعاره ما يصور شاعريته الخصبية . وقد أسقطنا من أشعاره ما كان يستخدمه من الألفاظ والأساليب العامة ، وهي أثر من آثار شعبيته واختلاطه بالعامية في بغداد .

الخبزُ أرزى^(١)

اسمه نصر بن أحمد ، شاعر بصرى ، كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ، وكان يَحْبِيزُ خُبْزَ الْأَرْزِ فِي دُكَّانِهِ بِمِزْنِ البصرة يتكسب بذلك معاشه ، وفي أثناء عمله كان يُنْشِدُ أشعاره المقصورة على الغزل ، والشباب والناس يزدحمون عليه لاستماع شعره ، ويتعجبون من حاله وأمره ، وشعره يذيع في الناس لقرب مأخذهِ وسهولته . وعنى بعض معاصريه ممن كانوا ينتابون دُكَّانَهُ بجمع أشعاره ، وجمعوا له ديواناً ، وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة مصورة منه ، ويقول المسعودى فيه : « أحد المطبوعين المجودين في البديهة المعروفين بالغزل » . ويقول أيضاً : « أكثر الغناء المحدث في وقتنا هذا من شعره » . والخبز أرزى بكل ما قدمنا شاعر شعبى بالمعنى الكامل ، فهو من بيئة شعبية ، صاحب صناعة وحرفة ، وهو أُمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وشعره يدور على كل لسان في بلدته والشباب والصبيبة ينشدونه في كل مكان والمغنون يغنون فيه على جميع آلات الطرب . وقدم بغداد فاستقبله أدباؤها وشبابها استقبالا حسناً لما كان قد سبقه إليهم من أشعاره الخفيفة السهلة العذبة . ومن الغريب أن نجد الثعالبي في اليتيمة يقول إنه كان على وشك إهماله وطىَّ أشعاره لسفسفة كلامه ، لولا أن وجد من معاصريه من اهتم بجمع ديوانه ، فرأى أن يضمّن كتابه « اليتيمة » لُمعاً من شعره علقت بحفظه ، وفي الوقت نفسه رأى الإعراض عن التصفّح لباقي شعره وترك الفحص فيه عما لا يصلح لإخافه باليتيمة من مُلّاحه . وبذلك فوّت على نفسه عملاً أدبياً ونقدياً جليلاً كان يمكن أن يضيفه لكتابه ولا ينقص منه ، بل لعله يرفعه درجات ، إذ يحتوى مادة شعرية شعبية كان جديراً أن تُعرّض كاملة ، حتى يُرى مدى ما حدث من تطور في اللغة الشعبية البصرية بالقياس إلى الفصحى ، سواء في جوانبها اللغوية أو الأسلوبية ، ويُرى أيضاً مدى ما ظل بينهما من تواصل . ولكن هذا غاب عن

٣ / ٢٧٦ ديوان الماعى ١ / ٢٧٢ ، ٢٩٧
وزهر الآداب ٢ / ١٣٧ وذيل زهر الآداب
ص ١٤٩ .

(١) انظر في الخبز أرزى وحياته وأشعاره
اليتيمة ٢ / ٢٦٧ ومروج الذهب ٤ / ٢٥٩
وابن خلكان في نصر بن أحمد والنجوم الزاهرة

ذهنه ، وأكبر الظن أنه إنما اختار أشعاراً ليس فيها عامية . ومع ذلك فنحن نؤمن بأن الفوارق حينئذ بين العامية والفصحى لم تكن واسعة . ومن مُلّحه التي رواها له قوله :

خَلِيلِيْ هَلْ أَبْصَرْتَمَا أَوْ سَمِعْتَمَا بِأَكْرَمَ مِنْ مَوْلَى تَمْشَى إِلَى عَبْدٍ
أَتَى زَائِرًا مِنْ غَيْرِ وَعَدِ وَقَالَ لِي أَصَوْنُكَ عَنْ تَعْلِيْقِ قَلْبِكَ بِالْوَعْدِ
فَمَا زَالَ كَأْسُ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ يَدُوْرُ بِأَفْلَاكِ السَّعَادَةِ وَالسَّعْدِ
فَطَوْرًا عَلَى تَقْبِيلِ نَرْجِسٍ نَاطِرٍ وَطَوْرًا عَلَى تَعْضِيْضِ تَفَاحَةِ الْخَدِّ
وَفِي كَلِمَةِ أَصَوْنُكَ عَنْ تَعْلِيْقِ قَلْبِكَ مَا يَصُوْرُ رَقَّتَهُ وَأَنَّهُ يَخْشَى عَلَيْهِ مِنْ تَعْلُقِ
قَلْبِهِ بِالْإِنْتِظَارِ ، والبيتان الثالث والرابع جيدان في التصوير . ومما روى له الثعالبي
أيضاً من مُلّحه قوله :

كَمْ أَنَاسٍ وَفَوْا لَنَا حِينَ غَابُوا وَأَنَاسٍ جَفَوْا وَهُمْ حُضَارُ
عَرَضُوا ثُمَّ أَعْرَضُوا وَاسْتَأْلَوْا ثُمَّ مَالُوا وَجَاوَرُوا ثُمَّ جَارُوا
لَا تَلُمُّهُمْ عَلَى التَّجَنُّيْ فَلَوْ لَمْ يَتَجَنُّوا لَمْ يَحْسُنِ الْإِعْتِذَارُ
والأبيات زاخرة بجناسات وطباقات تدل على أنه كان يَفْقَهُ صنعة الشعر
وصناعة البديعيين فيها فقهًا حسنًا . فوفوا تقابل «جفوا» وغابوا تقابل «حُضَار» وبين
كل كلمتين متعاقبتين في البيت الثاني جناس وطباق محكمان ، وحسن التعليل
واضح في البيت الأخير . والكلمات عذبة حلوة خفيفة . ومن مُلّحه قوله :

رَأَيْتَ الْهَلَالَ وَوَجَهَ الْحَبِيبِ فَكَانَا هَلَالَيْنِ عِنْدَ النَّظَرِ
فَلَمْ أَذَرِ مِنْ حَيْرَتِي فِيهِمَا هَلَالَ الدُّجَى مِنْ هَلَالِ الْبَشَرِ
وَلَوْلَا التَّوَرُّدُ فِي الْوَجْنَتَيْنِ وَمَا رَاعَنِي مِنْ سَوَادِ الشَّعْرِ
لَكُنْتُ أَظُنُّ الْهَلَالَ الْحَبِيبَ وَكُنْتُ أَظُنُّ الْحَبِيبَ الْقَمَرَ

والخيال جميل ، وأحاله إلى طرفة نفيسة حقاً بتلك الحيرة التي انتابته ، فلم يَدْرَ
أين هلال الدُّجَى وأين هلال البشر ، ثم أخذ يتأمل ، وبعد أناة طويلة لاحظ

تورّد الوجنتين وسواد الشعر فعرف أين الهلال وأين الحبيب وإلا ظل غارقاً في حيرته . ومن ملّحه :

قد كان لي فيما مضى خاتمٌ فالיום لو شئتُ تمنطقْتُ بهِ
وذُبْتُ حتى صِرْتُ لو زَجَّ بي في مُقَلَّةِ النَّائمِ لم يَنْتَبِهْ

وهي مبالغة واضحة فيما أصابه من ضنّاً بسبب حبه وشقائه فيه وعذابه . فحتى المبالغة التي كانت قد أخذت تشيع بين الشعراء نجدوها عنده ، وكأنه توفّر على الشعر في عصره وقبل عصره حتى استقامت له ملكته ، وحتى تمثّله بجميع مقوماته وخصائصه . وكان خفيف الروح فكهاً مما جعله محبوباً عند أهل البصرة في حياته وبعد مماته . ومن طريف ماله قوله في قلة الطعام على مائدة أحد أصدقائه :

ولعمري كان الخَوَانُ ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخِوَانِ
وجِفَانٍ مثل الجَوَابِي ولكنْ ليس فيهن ما يُرى بِالْعِيَانِ^(١)
فإذا ما أدرتُ فيها بِنَانِي لم أجِدْ ما أمسه بِنَانِ
إنني ما ضَعُفُ على غَيْرِ شَيْءٍ غير صِلِّ الأَسْنَانِ بِالْأَسْنَانِ
ترجع الكفّ وهي أفرغ منها عند مدّي لها فدأبي وشاني

والأبيات تدل على روح الدعابة عنده وأنه كان جميل المحضر عذب الفكاهة خفيف الظل على نفوس مواطنيه وعارفيه وعلى الشباب البصري خاصة مما جعلهم يتعلقون به تعلقاً شديداً . ويبدو أنه نظم بجانب مقطوعاته التي كان ينشدها في خبزه للأرز قصائد طويلة ، فقد أشار من ترجموا له إلى قصيدة طويلة طنانة استهلّها بقوله :

بات الحبيبُ منادى والسُّكْرُ يَصْبِغُ وَجَنَّتِيهِ

وواضح مما أنشدناه له أنه كان عذب الشعر رقيقه وهو شعر شعبي بالمعنى الدقيق ، فقد نظمته صانع من صناع الشعب ، لم يكن يحترف صنع الشعر للتكسب

به وعرضه على الخلفاء وغير الخلفاء ليمنحوه الجوائز المالية الضخمة ، فهو ليس
 ممن يقدمون شعرهم للطبقة الأرستقراطية إنما هو شاعر شعبي يقدم أشعاره للجمهور ،
 متبغياً لإرضاءه بتصويره لأحاسيسه في الغزل ، وبتأخذه لُغَتَه السهلة التي لا تجد
 في فهمها أى عسر أو مشقة . وقد لبى نداء ربه سنة ٣٣٠ للهجرة ، ويقول
 المسعودى 'أشيع أن الوزير البريدى غرقه لأنه كان هجاء ، وقيل : بل فتر من
 البصرة إلى هجر والبحرين وتوفي هناك ، ومهما يكن فقد حزن البصرة وشبابها
 لوفاة ، وظلت ذكراه ماثلة لأهلها طويلاً .